

تاريخ الفكر العربي

فى ضوء وتطوره بالترجمة والنقل عن الحضارة اليونانية

- ١ -

للعقل الانسانى منازع قد تسوق إلى نواحٍ من التأمل بعيدة كل البعد عن المنزع الحقيقى الذى كان سبباً فى تحريك الفكر نحو النظر فى المعقولات . فاذا نظرت فى الخلافات التى وقعت بين النصارى لدى أول عهدهم بالوجود ، لما استطعت أن تدرك بادىء ذى بدء ، الى أى حد سوف يذهب خلافهم ، وتنتهى مناظراتهم .

كان الخلاف على طبيعة المسيح ميذاً مناقشات تناولتها الشيع الكنسية فى القرون الأولى . وكان لاختلاف المذاهب فى تلك المسألة أكبر الأثر فى النظر فى المعقولات ، وفى التأمل الفلسفى .

اشتهرت انطاكية بأنها من أولى مدن المسيحية التى قام زعماء الدين فيها بأول حركة من تلك الحركات الفكرية التى كانت ذات أثر كبير فى شيوع الفلسفة ، وفروع الفلسفة اليونانية خاصة . ذلك بعد مناظرات دينية طويلة لا محل لذكرها . وقام بالحركة فى انطاكية معلمان يقال لأحدهما « ديودوروس » والآخر « تيودوروس المصيعى » وكانا شديدى الاعتقاد فى كمال الناسوتية فى المسيح عليه السلام .

وكان أكبر المؤيدين لهذا المذهب راهب من رهبان انطاكية يقال له « نسطور يوس » انتقل الى القسطنطينية أسقفاً لها سنة ٤٢٨ م . وتبع تأييد « نسطور يوس » لهذه الفكرة مناقشات حادة ، حتى انتهى الأمر بعقد مجلس دينى فى مدينة « إفسوس » سنة ٤٣١ م فانتصر حزب الاسكندرية ، وهو

الحزب القائل بما يضاد المذهب النسطوري ، واعتبر نسطور يوس وأتباعه هرطقة .
كان النساطرة على اعتقاد كامل في أن نظراءهم بعيدون عن حكم العقل
والضرورات الطبيعية . لذلك سعوا ، بعد مضي عامين على حكم مجلس
« إفسوس » إلى جمع شملهم ، وعلى الرغم من مطاردتهم والاستبداد بهم ، نزلوا
مصر واتخذوها مقراً لبث تعاليمهم .

قبيل ذلك العهد أغلقت مدرسة « نصيبين » (١) Nisibis أو بالأحرى
انتقلت إلى « الرها » Edessa . وفي سنة ٣٦٣ م سلمت مدينة « نصيبين » إلى
الفرس تنفيذاً للمعاهدة التي عقدت إثر الحرب التي أشعل نارها الامبراطور
« يوليانوس » . وكان أعضاء مدرستها منتشرين في الممالك المسيحية إذ ذاك ،
فعادوا إلى التجمع في « الرها » ، وفتحو مدرسة سنة ٣٧٣ م وبذلك أصبحت
تلك المدينة ، ولو أنها في أرض تابعة للإمبراطورية البيزنطية ، مركزاً للكنيسة التي
ينطق زعمائها باللسان السرياني .

أصبحت مدرسة « الرها » بعد ذلك موطناً لأفراد من زعماء النساطرة الذين
لم يقبلوا حكم مجلس « إفسوس » . غير أن الامبراطور « زينون » أغلق تلك
المدرسة سنة ٤٣٩ م . بحجة أن صبغتها نسطورية مثطرفة . فلم يجد أهلها من موئل
سوى الهجرة إلى البلاد الفارسية فهاجروا تحت رئاسة كبيرهم « بارسوما » سنة ٤٥٧ م
نجح « بارسوما » في أن يقنع « فيروز » Piruz ملك الفرس — بأن النساطرة
يوالون أبناء فارس ويمضون خاضعين لقوانينهم . وظلوا على عهدهم هذا كافرين
في كل الحروب التي وقعت من بعد ذلك . ثم أسس النساطرة مدرسة أخرى في
« نصيبين » فأصبحت بورة تشع منها التعاليم النسطورية ، تلك التعاليم التي كونت
وجهاً من أوجه المسيحية مصبوغاً بالصنعة الشرقية البحتة .

(١) مدينة على شاطئ الفرات كبيرة تعرف بنصيبين الروم تمييزاً لها عن نصيبين
الجزيرة وهي مدينة أخرى عامرة . و بين نصيبين الروم و بين أمد أربعة أيام أو ثلاثة
ومثاها بينها وبين حران ومن قصد بلاد الروم من حران مر بها .

ومن ثم انتشر النساطرة في جوف آسيا ، وبلاد العرب ، ينشرون تعاليم المسيحية . ولم يكونوا عاملين على نشر المسيحية فقط ، بل أرادوا أن ينشروا معها تعاليم الخاصة في طبيعة المسيح . فأخذوا يستعينون على بث أفكارهم بأقوال ومذاهب منتزعة من الفلسفة اليونانية . فأصبح كل مبشر نسطورى بحكم الضرورة معلماً في الفلسفة اليونانية ، كما أنه مبشر بالدين المسيحي .

ترجم النساطرة كتب زعمائهم ، وعلى الأخص كتب « تيودوروس المصيحي » الى السريانية ليستعينوا بها على بث أفكارهم . ولكنهم لم يقتصروا على ذلك ، بل ترجموا كثيراً من كتب أرسطوطاليس والذين علقوا عليها ، لأنهم وجدوا فيها أكبر نصير يشد عضدهم في فهم المسائل اللاهوتية العويصة التي كانوا يبشرون بها بين أمم لم تشم من ربح المدنية الا قدرا يجعل نشر مثل تلك التعاليم متعذراً ، مالم يستعن عليها بمبادئ من الفلسفة ، ومباحث في التأمل .

غير أن كثيراً من تلك التراجم قد صب في قالب لم يراع فيه نقل الفلسفة اليونانية لذاتها ، بل اتخذت التراجم ذريعة لبث مذهب ديني ، هو مذهب النساطرة ، والظعن في قياصرة الروم ، والكنيسة الرومانية ، فقلت الثقة بالنقل من هذه الوجهة وحدها ، حيث كانت الضرورة تقضى بأن يختلط قليل من الفلسفة بكثير من تعاليم المذهب النسطورى أو بالعكس ، للاستعانة بذلك على بث المذهب الديني ، وهو الغرض الرئيسي .

تلك كانت النواة التي أشعت بالفلسفة اليونانية ، وعلى الأخص بفلسفة أرسطوطاليس والافلاطونية الجديدة في جوآسيا خارج حدود الامبراطورية البيزنطية . وسوف نرى في سياق هذا البحث كيف أن جماعة من مترجمي النساطرة كانوا أول من نقل تلك الفلسفة من السريانية الى اللغة العربية . وبذلك انتشرت في العالم العربي كله .

غير أنك تجد رغم هذا أن في الحركة النسطورية أوجها من النقص شأن

كل شيء يصدر عن الانسان . فان انبتات صلاحها بالعالم اليونانى خارج الامبراطورية البيزنطية جعل حركتها التعليمية مصبوغة بصبغة الانحصار في بقعة محدودة من آسيا .

أما « نسطوريوس » فانه إن كان قد أتهم أمام الكنيسة وصدر حكم مجمع « إفسوس » عليه فانه ترك الكنيسة أمام مشكلة من مشاكلها العظمى ، التي ظلت تعمل في رؤوس الناس زماناً ، حتى انتهت المناقشات الشيعية جمع آخر عقد في سنة ٤٤٨ م بمدينة « خلقيدونية » Chalcedon ، وكانت نتيجته أن أخرجت فئة أخرى من الكنيسة الرئيسية هم فئة المعتقدين بالطبيعة الواحدة في المسيح . Monophysites .

والظن الغالب على كثير من المؤرخين أن الكنيسة المصرية قد تبعت القائلين بالطبيعة الواحدة . ففي القرن السادس قام يعقوب السروجي وأنشأ شيعة اليعاقبة . وهو الذي كون الكنيسة اليعقوبية المصرية وجمع شمل أعضائها وأقام أسسها . وأكبر دليل على ذلك أن اسم « أقباط » مشتق من يعاقبة . فان إسم هؤلاء في العالم اللاتيني « جا كوييت » . وأقباط أقرب الأشياء تحريفاً إليه .

اضطهدت امبراطورية بيزنطية الشيعة اليعقوبية . ولكن أعضاءها لم يخرجوا عن حدود الأمبراطورية ، بل ظلوا داخلها كقسم مستقل بصورة خاصة من أصحاب الطبيعة الواحدة - Monophysites - وأرسلوا طائفة منهم خارج الامبراطورية تبث تعاليمهم . على أن هؤلاء قد اتبعوا نفس الطريقة التي اتبعها النساطرة في ترك لغة نظرائهم في الدين ، وعمدوا الى استعمال اللغة القبطية واللغة السريانية . وخلق أن عصر اللغة السريانية الذهبي ، لا يبدأ الا برجوع اليعاقبة عن استعمال اللغة اللاتينية ، الى اللغة السريانية .

والظاهر لسلك من درس علم اللغات أن هنالك فصلاً حقيقياً بين اللغة

السريانية كما استعمالها اليعاقبة في الغرب، والنساطرة في الشرق، فإن اليعاقبة قد انتحلوا لهجات حديثة، يغلب أن يكون السبب فيها راجعاً إلى طبيعة استيطانهم ووزعهم الجغرافي.

إذا اعتبرنا النتائج التي حدثت من خروج النساطرة واليعاقبة، استطعنا أن نفهم لماذا ترجمت أعمال الفلاسفة اليونان إلى اللغة السريانية، بينما نجد أن الحركة النسطورية قد أصبحت بالتدريج الوسط الذي تركزت فيه ثمار التثقيف اليوناني، وانتشرت في آسيا خارج حدود الأمبراطورية البيزنطية خلال بضعة القرون التي تقدمت انتشار الإسلام.

ولا خفاء في أن تعاليم أرسطوطاليس وأتباعه المشائين، وكذلك تعاليم فلاسفة المدرسة الأفلاطونية الجديدة، كانت ذات أثر بارز في التأثير على كل من تعمد الخوض في معارك الطوائف الدينية في ذلك الزمان. وكذلك منطق أرسطوطاليس، فإنه كان كبير الفائدة وعليه بنيت طريقة الجدل التي اتخذها زعماء الدين ذريعة لاثبات مزاعمهم.

وبعد أن انفصل النساطرة واليعاقبة عن لغتهم الأصلية، نقلوا كثيراً من الكتب المسيحية إلى اللغة السريانية، فأصبح في هذه اللغة مجموعة كبيرة من المؤلفات الفلسفية والعلمية والدينية. على أن السبب في أنه لم ينقل إلى اللغة القبطية من المؤلفات بقدر ما نقل إلى اللغة السريانية، أن اليعاقبة في مصر لم تدعهم الحالات إلى مواجهة مسائل معضلة في الدين، كما كان النساطرة في آسيا. كان العصر الواقع بين بدء المجادلات الدينية في الكنيسة المسيحية وظهور الرغبة عن المسلمين في درس الفلسفة، عصر ترجمة وانتاج ذهني، علق خلاله على كثير من مسائل الفلسفة واستعرضت فيه طائفة كبيرة من أفكار اليونان ومذاهبهم، ولم يعن الناقلون في ذلك العصر بالفلسفة وحنها، بل عمدوا إلى الطب وعلم الكيمياء والفلك، فترجموا في تلك العلوم كثيراً، لأنهم

كانوا يعتقدون أن بين الطب وبين الكيمياء والفلك آصرة قريبة ونسباً أدنى .
فكانوا يقولون بأن لعلم الفلك من الوجهة الطبيعية ، علاقة بنشوء الأمراض ،
وحالات الحياة والموت والصحة والمرض .

كانت المباحث الطبية أكثر ذبوعاً في مدرسة الاسكندرية منها في أية
مدرسة أخرى . أما الفلسفة بمعناها الحقيقي فكانت علاقتها باللاهوت مباشرة ،
حتى اضطر دارسوا العلوم الى أن يفصلوا بين مباحثهم وبين الفلسفة بقدر ما كان
ذلك في المستطاع ، على ما كان عليه الفكر في تلك العصور من عدم القدرة
والعجز عن التفريق بين كفايات العقل البشري .

كان « يوحنا فيلوبونس » - John Philoponus - أو يوحنا النحوي (١)
— كما يدعوه العرب خطأ — من متأخري الذين علقوا على أرسطو وليس ، كما كان من
أوائل الذين درسوا الطب في مدرسة الاسكندرية . والسنة التي توفي فيها غير
معروفة . ولكن المحقق من أمره ، أنه كان يدرس في مدرسة الاسكندرية في
الوقت الذي أغلق فيه الامبراطور (يوستينيانوس) مدارس أثينا سنة ٥٢٩ ميلادية .

ومن مشهورى فلاسفة الاسكندرية (بولس الأجانيطي) Paul of Aeginae
وكان يدرس في الوقت الذي وقع فيه الفتح العربي ، وظلت كتبه زماناً طويلاً
تدرس في مدرسة الاسكندرية ككتون ذات قيمة كبيرة في علم الطب . وكان
أعلام المدرسة قد رسموا برنامجاً ، لعله الأول من نوعه في تاريخ الدرس والتحصيل ،
لتدريس الطب ، يدرسه كل من أراد أن يزاول تلك الصناعة عملياً . ولذلك
أنتخبوا ست عشرة مقالة من مقالات (جالينوس) وترجموها ليؤلفوا منها برنامج
الطب في المدرسة . ثم اختصروا بعضها واتخذت المختصرات كرؤوس موضوعات

(١) أثبت العلامة الدكتور صروف في مقتطف مارس سنة ١٩١١ أن يوحنا أسقف
نحو غير يوحنا الغرماطيقي وأن كلمة نحو آتية من اسمه وأنه هو صاحب التاريخ الذي وصف
فتح العرب لمصر وصف مشاهد له .

تلقى على نسقها المحاضرات التعليمية شرحاً وتفصيلاً . وغالب الظن أنهم ما تزعوا
الى اختصار مقالات (جالينوس) وأنها رءوس موضوعات فقط ، الا لما
أنسوا فى أنفسهم وفى أساتذتهم من قوة الابتكار والتعمق فى الدرس لابعدهما
كان يحدده لهم (جالينوس) فى مقالاته . وفى ذلك الزمان أصبحت مدرسة
الاسكندرية منبعاً لكثير من الأبحاث المبتكرة المحققة النفع ، لافى مادة الطب
وحدها ، بل فى علم الكيمياء ، وكثير من العلوم الطبيعية . وما أشبه مدرسة
الاسكندرية قبيل الفتح العربى بخلية تدوى بمختلف البحوث العلمية .

بيد أن هذه الحركة الطيبة لم تخل من نتائجها الرجعية ، على ما كان فيها من
نزعة الى العلم والفلسفة والتنوير الذهبى . فإن التقاليد ، وأجدر بها أن تؤثر فى ذلك
العصر أضعاف تأثيرها فى عصرنا هذا ، قد أفسدت بعض وجوه العلم والفلسفة
فنزعت فئسات الى ناحية (الجمود الفاسى) Philosophical Obscurantism
انتفاء الضغط على العقول والرجوع بها الى العالم المجهول من الفلسفة ، على اعتقاد أن
إدراكه من طريق الطلسمات وفن التنجيم مستطاع على الأقل .

هذا هو السبب المباشر فى كثرة ما تقع عليه عند العرب من ضروب المفاصد
والشعوذة . وفى كل ذلك يقول كبار المؤرخين أن الذنب فى ذلك ليس ذنب
الاسلام ولا المسلمين ، ولا ذنب العقل السامى ، ولكنها رائة ورثها العرب عن
الاسكندرية بعد الفتح العربى ، كما ورثتها جامعة (بادوى) Padua الاوروية
فى القرون الوسطى عن العرب .

كان أول احتكاك للعرب بالأراء اليونانية فى مدينة الاسكندرية . لذلك
كانت وراثتهم منها أقرب من وراثتهم عن سوريا . ولهذا أنتشر عندهم التنجيم
ودلف العرب بقدمهم فى مقاوزه الوعرة ، وظلوا عليه عاكفين حتى آخر عصور
مدينتهم . ذلك لان نجم الاسكندرية فى العلم قد أطفأ أنوار السريانية . وأخص
ما يأخذ بلب الناس فى مثل تلك الحالات خداع الشهرة وبعد الصيت . لهذا

أكبر العرب تحت تأثير تلك العوامل على نواحي العقل في الاسكندرية، دون ما تضمنت السريانية من مباحث العلم والفلسفة .

في وسط هذه الصورة الذهنية نبتت مؤلفات « بولس الاجانيطي » الذي مر بنا ذكره . وقد ظلت مؤلفاته طوال العصر العربي والعصر اللاتيني في القرون الوسطى ، مادة التعاليم الطبية .

كذلك كانت مدرسة الاسكندرية منبتاً لعلم الكيمياء . ففيها تكونت النواة الاولى التي استمد العرب منها سواء أفي هذا العلم ، أم فيما تفرع منه من الفنون الأخر ، التي كثيراً ما امتزجت بانخيلات والإوهام . وفي ذلك يقول المؤرخ الكبير مسيو (برتيو) - Berthelot - في كتابه (الكيمياء في القرون الوسطى) الذي طبع بباريس سنة ١٨٩٣ - « ان المادة العربية في الكيمياء تنقسم الى قسمين : الاول مترجم أو مأخوذ عن كتاب اليونان الذين كتبوا في مدرسة الاسكندرية ، والثاني يمثل مدرسة عربية ثانية مستقلة المباحث عن الاولى » .

وبينما كانت مدرسة الاسكندرية غارقة في المباحث الطبية ، كانت كنائس آسيا وأديرتها ومدارسها ، مغمنة في المباحث المنطقية والفلسفة التأملية .

وكان من الطبيعي أن يأخذ اليعاقبة عن تعليقات « يوحنا فيلوفونس » في تدريس علم المنطق ، لعلاقتهم بمصر أولاً ، ولأن فيلوفونس من شيوخهم ثانياً . غير أنهم لم يفعلوا لك . بل رجعوا والنساطرة الى مختصر « فرفوريوس الصوري » في المنطق المسمى « إيساغوجي » وأخذوه كمدخل لعلم المنطق . ولا يزال هذا الكتاب يقرأ في الأزهر حتى اليوم كمدخل لذلك العلم .

أما في الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) والبسيكولوجيا (علم النفس) وتطبيقهما على علم اللاهوت ، أو في الاستعانة بهما على فهم المسائل اللاهوتية ، فقد كان ميل اليعاقبة الى الافلاطونية الجديدة ، والباطنية ، أقوى من ميل النساطرة ، كما كانت حياتهم وتعاليمهم أكثر استكانة في الاديرة ، في حين أنك تجد أن

النساطرة قد تزدهوا الى الطريقة القديمة في تأسيس المدارس ، ولو أن ذلك لم يحل دون اتخاذهم أديرة ، كانت بدورها منبتاً للعلم والفلسفة . واذ أنت على ذلك اذا بك تجد أن نظام المدارس قد انقلب في آخر الامر الى نظام الرهبنة .

كانت مدرسة « نصيبين » أقدم مدارس النساطرة وأعظمها جميعاً . غير أن « ماراًبها » Mar-Abha وهو زرادشتي تنصر ، وسيم أسقفاً نسطورياً ، أسس مدرسة في « سلوقية » على نظام مدرسة « نصيبين » .

وبعد ذلك بقليل أسس « كسرى انوشروان » ملك الفرس المشهور مدرسة زرادشتية في « جنديسابور » من أعمال « خوزستان » . وحكم « أنوشروان » بين ٥٣١ — ٥٧٨ من الميلاد . وكان قد تأثر بتعاليم اليونان ، حينما كان يحارب سورية البيزنطية ، فاضاف جمعاً من الفلاسفة اليونان ، والفلاسفة العارفين بالفلسفة اليونانية ، عند ما أغلق الامبراطور « يوستنيانوس » الهياكل والمدارس في آثينا .

وكان الذين وفدوا على « كسرى » من الفلاسفة سبعة ، فآكرم وفادتهم وأضافهم وأمرهم بتأليف كتب الفلسفة أو نقلها الى الفارسية ، فنقلوا المنطق والطب وألغوا فيها كتباً فطالها هو ورغب الناس فيها (راجع الفهرست ص ٢٤٢) . على أنه في رواية صاحب الفهرست شكاً كبيراً . إذ كيف ينقل الفلاسفة اليونان الوثنيون الذين لا احتكاك لهم بالفارسية ، وعلى الاخص الفهلوية ، كتب المنطق والطب الى لغة فارس ، في حين أن الراجح أن لا يكون لهم المام إلا بلغتهم اليونانية القديمة ؟ يبقى ذلك الشك ما لم يثبت أن الفلاسفة اليونان كان لهم سابقة في دراسة الفارسية في عصر متقدم على عصر انوشروان .

ويقول بعض المؤلفين أن أنوشروان عقد المجالس للبحث والمناظرة كما فعل المأمون من بعده بقرنين ونيف ، حتى « خيل للاغريق الذين جالسوه أنه من تلامذة افلاطون » . أما عقد انوشروان لمجالس العلم فذلك محتمل ، لان أخباره مع وفود العرب وعقد المجالس لهم معروفة مشهور أمرها بين الأدباء . أما بقية الرواية فامر

مشكوك فيه ، لأن عهد أنوشروان بفلسفة اليونان كان قصيراً الى حد لا يعقل أن يبرز فيه انوشروان في الفلسفة الى هذا المدى القصي . ومما يجعل الرواية أدخل في الشك أن أفلاطون علم في القرن الرابع قبل الميلاد ، ولم يعتقد أنوشروان بحال الفلسفة والعلم إلا في القرن السادس بعد الميلاد ، فكيف ينخيل الى الفلاسفة اليونان الذين حضروا بلسمه أنه تلميذ من تلامذة أفلاطون ، في حين أن تلاميذ أفلاطون كان قد أكلمهم البلي من قبل ذلك بالف عام ؟

والذي ذكر هذه الرواية العلامة (غيبون) مؤرخ سقوط الدولة الرومانية (راجع كتابه تداعي الامبراطورية الرومانية وسقوطها طبعة سنة ١٨١٣ جزء ثان ص ٢٩٨ - ٣٠٧) . على ان (غيبون) لا بد من ان يكون قد استسقى هذه الرواية من كتاب عربي قديم (١) .

ومما يدل على اهتمام (أنوشروان) بأولئك السبعة الذين وفدوا عليه من فلاسفة اليونان ، أنه وضع في المعاهدة التي عقدها والامبراطورية البيزنطية ، نصاً خاصاً بهم ضمن لهم به حريتهم المدنية ، والدينية وعدم الاستبداد بهم فيما لو ارادوا العودة الى وطنهم .

كان هؤلاء الفلاسفة من الآخذين بتعاليم (الافلاطونية الجديدة) Neo-platonism على أن اثرهم في الحياة الفارسية غير معروف بالضبط ، فالى أى حد تذهب هذه التعاليم في التأثير على صور التصوف التي ظهرت في فارس فيما بعد ؟ ذلك ما أخذت المباحث الجديدة تجلو عنه الاستار . فقد كتب العلامة (نيكولسون) في كتاب « اشعار منتخبة من الديوان » طبع كمبرج

(١) ذكر لي العلامة الدكتور صروف أنه قرأ في كتاب عربي قديم رواية تثبت أن غيبون انما استسقى روايته عن مصدر عربي صحيح . على أن الثقة بالمصادر ، وعلى الاختصاص بمصادر عربية بعيدة العهد تناولتها الايدي بالنسخ والحذف والاضافة ، تختلف اختلافًا كبيراً ، كما ان منازل الثقة ذاتها تتباين باختلاف المنقول عنه

(١٨٩٨) شيئاً يكشف عن تلك الآصرة التي تربط بين «الافلاطونية الجديدة» والباطنية كما اخذ بها في فارس .

وعقب عليه الاستاذ «ديلاسى أوليرى» فدبج في مؤلفه الذى طبع سنة ١٩٢٥ عن الفكر العربى فصلا في الصوفية هو الفصل السابع من ذلك الكتاب (ص ١٨١ - ٢٠٧) أوضح فيه أواصر العلاقة بين الباطنية المبثوثة في تضاعيف (الافلاطونية الجديدة) وبين الباطنية الفارسية في العصر الوثنى ، وما كان من أثرها فيما بعد على صور التصوف التى اختصت بها فارس وابناء العرب بعد الاسلام .

وكان اساس التعليم في مدرسة (جنديسابور) غير مقصور على المؤلفات اليونانية والسريانية ، بل أضيف الى ذلك تعاليم من فلسفة الهند وآدابها وعلومها ، ترجمت الى اللغة الفهلوية وهى اللغة الفارسية القديمة ، وهناك نمت علوم الطب حين تخلصت من جو الضغط والاستبداد الذى حوطها به التعاليم اللاهوتية . ومن غريب الامر أن يكون من أشهر الذين علموا الطب في ثوبه الجنديسابورى الحديث ، فئة من أشهر النساطرة المسيحيين .

ومن الذين اشتهروا من العرب قبل الاسلام في مدرسة «جنديسابور» الحارث بن كلدة الذى عرف من ابعده كطبيب ، وابنه «الزهر» الذى ذكره الرئيس ابن سينا كاحد اعداء سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، وكان مع الذين هزموا يوم « بدر » ، فانسر وقتله على بن أبى طالب صبياً ، على رواية أبى اسحاق الحصرى القيروانى « راجع زهر الآداب ص ٢٧ مجلد أول » فعرضت للنبي صلى الله عليه وسلم اخته قتيلة بنت الحارث فانشدته .

يارا كبا إن الأثيل منطية	من صبح غادية وأنت موفق
أبلغ بها ميتاً بأن تحية	ما إن تزال بها النجائب تعنق
منى اليك وهبرة مسفوحة	جادت بوا كفها وأخرى تحنة

هل يسمع النضر إن ناديته
 ظلت سيوف بني أبيه تنوشه
 قسراً يقاد إلى المنية متعباً
 أمجد هأنت صنو كريمة
 ما كان ضرك لو مننت وربما
 فالنضر أقرب من قتلت قرابة
 أو كنت قابل فدية فليفتدى
 إن كان يسمع ميت لا ينطق
 لله أرواحم هناك تشفق
 رسف المقيد وهو عان موقق
 في قومها والفحل فحل معرق
 من الفتى وهو المغيظ المحنق
 وأحقهم إن كان عتق يمتعق
 بأعز ما يغلى به من ينفق

وقتل علي بن أبي طالب للنضر صبراً ، أي حبساً ، غير صحيحة على ما يظهر من شعر أخته قتيلة . فأمها تقول : « ظلت سيوف بني أبيه تنوشه » أي تنهل منه وتنال . وما يدل عليه الشعر ، ان صحت نسبه الى قتيلة ، أنه أسر أولاً ، وربما حبس ، كظاهر قولها : « قسراً يقاد الى المنية متعباً » وأنه قتل من بعد ذلك طعناً بالسيوف . أما ما يعز به بعض الأدباء في نسبة الشعر الى قتيلة فتم عن بطلانه ديباجة الشعر ورتة الحزن العميق وفرط الأسى والشجن . وهو النضر بن الحارث بن علقمة بن كعدة بن عبدمناف بن عبدالدار (١) ، فنسبه يلتقى ونسب سيدنا محمد (عليه الصلاة والسلام) في الجدل الثالث .

* * *

من ذكر « الرازي » من أعلام مدرسة جنديسابور من أبناء الهند « شركة » Sharak و « قلهومن » Qolthoman ومنهم هندي يقال له « شاناك » Ganak كتب رسالة في السموم ترجمها من بعد أحد التراجم ليحيى بن خالد البرمكي الى الفارسية ، ومن بعد ترجمت الى العربية ، للخليفة المأمون بن هرون الرشيد . وترجمت في عصر هرون الرشيد بواسطة طبيبه الخالص بضعة كتب عن السنسكريتية الى العربية في علم الطب ، حتى أنه من المتعذر أن تعرف أصل

(١) راجع زهر الآداب جزء أول ص ٢٧ طبعة المطبعة التجارية بمصر سنة ١٩٢٥ .

التعاليم الشائعة في الطب العربي إن كانت مستمدة من الإغريق أم من الهند ،
أم هي مبتكرة ، إلا بعد طول المزاولة والصبر على تفهم حقيقتها وطبيعتها ومقارنتها
بمنزاع الآراء المستمدة من كل من تلك النواحي .

وفضلاً عن المدرستين المسيحية والزرادشتية ، فقد وجدت مدرسة وثنية في
« حران » ولا يعلم كيف نشأت وكيف تطورت ! ولا من وضعها وأقام أسسها !
وكانت حران مركزاً للتأثير الإغريقي منذ عصر الاسكندر المقدوني الأكبر ،
وظلت مؤثلاً لتعاليم الديانة اليونانية القديمة ، بعد أن انقلب العالم اليوناني الوثني
إلى عالم نصراني . والظاهر أن « حران » قد ورثت كثيراً من تعاليم الديانة
البابلية القديمة التي كانت قد انتعشت في القرون الأولى من انتشار المسيحية .
إلا أن صور تلك الديانة القديمة قد ذهبت بها تطورات الديانة اليونانية الوثنية
كما فهمتها « الافلاطونية الجديدة » ، وكما وضعها زعماء تلك الفلسفة في مدينة
الاسكندرية . ولا مشاحة في أن حالات الفكر في « حران » تمثل آخر أدوار
الوثنية اليونانية والافلاطونية الجديدة كما وضعهما « فرفور يوس الصوري » حيث
ظلتا عاثتتين عمدتين بكل أسباب الحياة ، عيشة بعيدة عن معتك العالم الخارج
عن حيزهما .

وعلى الرغم من المدارس التي علمت على النسق اليوناني ، وأذاعت مواد الثقافة
اليونانية ، فقد اقترنت التعاليم بكثير من المؤثرات الأخر التي لا يمكن لتؤرخ في
تاريخ الفكر أن يغفل أمرها . فإن الجنود الفارسية عند ما رجعت من غزوة سورية
نقلت معها كثيراً من آثار الفكر اليوناني ، وطائفة من مظاهر الرفاهية اليونانية .
وكذلك طبعت نفوس أبناء فارس بعد تلك الغزوة بطابع من الإعجاب بالفن اليوناني
وهندسة البناء اليونانية . وكان المهندسون والبنائون اليونان الذين أسروا في الحرب
أمن ما رجع به الجيش الغازي من المغنم ، حتى أن بلاد فارس بدأت بعد تلك
الغزوة تدخل نسق البناء اليوناني فيما تشيد من المباني .

إذن فتاريخ القرون التي تقدمت انتشار الإسلام تدل على ذبوع قسط عظيم من التأثير اليوناني في كثير من فروع الفن والعلم والفلسفة والهندسة والبناء ، وفي زخارف الحياة ذاتها . ومن قبل ذلك ، منذ عصر الاسكندر المقدوني ، كان غربي آسيا لا يتنفس الا في جو مفعم بآثار الفكر الاغريقي .

-٢-

ص بنا من قبل ذكر « بارسوما » الذي قاد الهجرة النسطورية الى بلاد فارس وافتتح مدرسة (نصيين) . كان لذلك الرجل معلم يقال له (ايباس) هو القوة المحركة والعقل المفكر في مدرسة (الرها) في اواخر أيامها . ويظهر من المقارنة التاريحية أنه أول من ترجم (ايساغوجي) مختصر (فرفور يوس) في المنطق الى السريانية . ويعتبر هذا الكتاب مدخلا لمنطق ارسطو طاليس كما قدمنا . ويدل ذلك على أن المنطق كان يعتبر العلم الرئيسي الذي عنى بتدريسه النساطرة ، والظن الغالب أنه لم يكن ليقل اعتباره في نظر اليعاقبة عند ذلك .

وفي ذلك الوقت ظهر (بروبوس) - Probus - فعلق على كتاب (الايساغوجي) كما علق على بعض كتب ارسطو طاليس ومنها (إرمانوطيقا) - Hermeneutica - أي العبارة أو كما يقولون (باري أرمنياس) و (سوفسطيقا) - Sophistica - « وأناليطيقا الاولى » Analytica priora أي القياس ، فكانت هذه التعليقات .
ثابتة متون يرجع اليها طلاب المنطق في بلاد السريان .

ومن الوصف الذي خصت به التراجم السريانية عن ارسطو طاليس تعرف أن العرب لم يقتصروا على النقل عنهم الى العربية ، بل اتبعوا نفس الطريقة وذات الاسلوب الذي تبعه المترجمون الى السريانية ، لا في تراجمهم فقط ، بل في مؤلفاتهم أيضاً .

كان من عادة المعلقين على ارسطو طاليس قبل العصر العربي أن يأخذوا مقطعاً قصيراً من متنه المترجم إلى السريانية ، وقد لا يزيد عن بضع كلمات ،

يعاقبون عليه باطناب وقد يذهب التعليق الى عدة صفحات طويلة ، وقد يقتصر على اشارات مقتضبة ، حسب ما يقتضى الحال من حاجة الى الاطناب أو الاجازة ، كما لو كان معلم في مدرسة يقرأ فقرة ويلحق بأخرى بعد أن يفرغ من شرح الاولى . ولو نظرت في كتاب « المواقف » لعضد الدين ، أو نظرت في تفسير القرآن ، لوجدت أن «عضد الدين» قد اتبع هذه الطريقة نفسها في كتابة مؤلفه الفلسفي ، كما اتبعها المفسرون في تفسير كتاب الله .

أما التعليق على « الايساغوجي » فقد طبع بعناية الاستاذ « بومستراك » Baumstrack- في كتاب - Aristotles bei den Syrern - في ليبنرج سنة ١٩٠٠ كما طبع الاستاذ الكبير « هوناكر » Hoonacker- « الاناليطيقا الاولى » في المجلة الآسيوية Jornal Asiatique في عددى يوليه وأغسطس سنة ١٩٠٠ . وكان (سرجيس الراس عيني) المتوفى سنة ٥٣٦ ميلادية اعظم مؤلفي العياقة وكان مترجماً ، كما كان مؤلفاً في الفلسفة والطب والهيئة والفلك . وكان اشتغاله بالطب عماله الرئيسي ، بيد أنه ترجم الى السريانية الجزء الاعظم من مؤلفات جالنيوس . وأمضى زمناً في الاسكندرية حيث اتقن اللغة اليونانية ودرس الكيمياء والطب في مدرستها الطبية لدى أول عهدها بتدريس ذلك العلم . أما نشأته فكانت برأس العين بالعراق . ولا تزال بعض ترجماته عن جالنيوس محفوظة حتى اليوم في المتحف البريطاني ضمن المجموعة ١٤٦٦١ والمجموعة ١٧١٥٦ . ونشر العلامة المستشرق « ساخاو » Sachau نتفا مما هو محفوظ في المجموعة الثانية في كتاب سماه Inedita Syriaca في فينا سنة ١٨٧٠ . ونشر « ساخاو » فضلاً عن ذلك ترجمة « الايساغوجي » ، وفي المتحف البريطاني نسخة خطية من ذلك الكتاب ، كما نشر « المائدة » لفرفوريوس وقاطيفوريوس أي المقولات لارسطوطاليس ، ومقالة في الروح ، وهي ليست مقالة ارسطوطاليس المعروفة تحت عنوان (ده انيا) De Anima . وكتب مقالة في المنطق في سبعة مجلدات ، ومنها

جزء في المقولات محفوظة في المتحف البريطاني ضمن المجموعة ١٤٦٦٠ ، ومقالة أخرى ضمن ذلك الكتاب في تعليل الكون حسب مذهب أرسطوطاليس ، وعدد من المقالات القصيرة تتناول مختلف الموضوعات . أما في علم الفلك فقد ترك مقالة في تأثير القمر بناها على مؤلفات جالنيوس ، ونشرها العلامة «ساخاو» وقد انتشرت مؤلفات «سرجيس» بين النساطرة واليعاقبة على السواء . وكان الكل يحسبونه مرجعا من المراجع العليا في الطب والفلسفة وثقة من ثقاهما . ويقال انه اسس مدرسة سريانية في الطب اصبحت فيها بعد النبع المنبثق بما استسقى منه العرب . على ان الراجح انه لم يؤسسها ، بل كان له أثر كبير في تأسيسها وقيامها .

وفي القرن ذاته - أي القرن السادس الميلادي - عاش «أخوديما» Ahudemmeh الذي أصبح اسقفاً في «تغريط» - Tagrit - سنة ٥٥٩ م . فادخل تعليقات «يوحنا فيلوبونس» على أن تكون الكتاب المدرسي بين اليعاقبة الذين يتكلمون السريانية . ويقول بعض المؤلفين إنه الف مقالات في تعريفات المنطق ، وفي حرية الارادة ، وفي الروح ، وفي الانسان باعتباره علما صغيراً . - Microcosm - ومقالات أخرى في تركيب الانسان على ان مكون من جسد وروح . وهذه المقالة محفوظة في المتحف البريطاني ضمن المجموعة ١٤٦٢٠ .

وان صح أن «أخوديما» قد كتب في الانسان باعتباره علما صغيرا ، حق لنا أن نكرر المشل القائل «لاجديد تحت الشمس» . فان الانسان أو العالم الصغير - Microcosm - قد سد التفكير فيه فراغا كبيرا في عقل «هردر» Herder الفيلسوف الالماني في القرن التاسع عشر . كذلك انتشرت أفكار فلسفية ، بل مذاهب حصرت همها في بحث الانسان وعلاقته بهذا الكون الفسيح وطبيعياً وأديباً ، بل تعدت الى النظر الغيبي .

كان مذهب «سبنسر» في النشوء ، ومذهب «هردر» في (الميكروكوزم)

ى العالم الصغير يرميان الى إثبات وحدة الفكر ، واحداث ذلك التصور العميق الذى يسوق الى الاعتقاد بان الاشياء تحتفظ ببقائها ، وأن الحوادث الكونية تقع خضوعاً لعلاقة كائنة بينهما يمكن ادراكها وان وجهتى النظر الدينى والعلمى فى هذه الحياة يمكن التوفيق بينهما .

فى القرن التاسع عشر حصرت طائفة من الكتاب همها فى وصف العالم وصفاً دقيقاً . حتى أن مؤلفاتهم قد كونت فى عقل « هردير » حالة تساءل معها — « فى وسط تلك الصورة التى صورت بها الطبيعة، وفى جوف التغيرات التى تنتاب هذا الكون الاكبر ، أين يوجد الكون الاصغر ؟ »

ان صور هذه الدنيا العظيمة اذ تتغلغل فى أعماق سحيقة من الادراك العام، انما تلزمنا الرجوع الى أنفسنا لكي نعاود التساؤل كما تساءل « هردير » « أية قيمة لحياة الانسان والانسانية ، بما فيها من الخصائص الخالدة وبما فى تاريخها من أوجه التغيرات فى وسط هذه الطبيعة من مجموعها ؟ »

أما اذا أردنا ان نعرف ان كانت هذه الفكرة بذاتها هى التى قامت فى رأس « اخوديما » فى القرن السادس الميلادى ، ثم عادت الى التكون فى عقل « هردير » فى القرن التاسع عشر ، والفاصل بينهما ثلاثة عشر قرناً من الزمان ، فيغلب أن تكون محفوظات المتاحف الاوربية كفيلة بذلك .

* * *

من بين مؤلفى النساطرة الذين عاشوا خلال القرن السادس الميلادى « بولس الفارسى » Paul The Persian ، وقد كتب مقالة فى المنطق أهداها الى الملك كسرى انوشروان ، وقد نشرها «سيو « لاند » Land فى كتابه المسعى Analecta Syriaca

كان هذا فجر الفتح العربى . فى سنة ٦٣٨ من الميلاد فتح العرب سوريا ، وتبعتها فتح ما بين النهرين والعراق فى سنة واحدة ، وبعد أربع سنوات فتحوا بلاد

فارس . وسنة ٦٦١ م. استقر الملك لبني أمية في دمشق. ولكن هذا الفتح لم يؤثر في حياة الجماعات المسيحية حيث كانت طوائفهم تعيش تحت الحكم العربي متمتع بكل ضروب الحرية السياسية والدينية ، ولم يتعرض حكامهم العرب لشؤونهم الذاتية ، وكل ما كان يطلب منهم للحكومة إنما ، هو الخضوع لقوانينها الزمنية ودفع الجزية.

وحوالي سنة ٦٥٠ م. كتب «حنانيشو» -Henanieshu- مقالة في المنطق وعلق على «يوحنا فيلوبونس» ولم يكن لليعاقبة مدارس ظاهرة الاثر كما كان للنساطرة ، ولكنهم استعاضوا عن ذلك بدير لهم في «قنسرين» على ضفة الفرات اليسرى ، كان مقراً لدرس منتجات العقل اليوناني .

وكان أعظم من ظهر فيهم هنالك «سويرس سيبوقط» Severus Sebokt — الذي عاش قبيل الغزو العربي ، وألف تعليقا على «إرمانوطيقا» Hermeneutica — لارسطوطايس لم يبق منه إلا أجزاء صغيرة ، ومقالة أخرى في القياس تعليقا على «أناليطيقا» الاولى — Analyica Priora وشرح بعض العضلات التي صادفها في «الريطوريقا» Rhetorica أي الخطابة ، لارسطو . اما في علم الفلك فقد كتب مقالة في « صور منطق البروج» وأخرى في «الاسطرلاب» . أما الاولى ففي المتحف البريطاني محفوظة ضمن المجموعة ١٤٥٣٨ ، وطبعها العلامة المستشرق «ساخاو» . وأما الثانية ففي برلين ضمن مخلفات «ساخاو» ، وطبعها العلامة «ناو» Nau في الجريدة الاسيوية سنة ١٨٩٩ .

وكان «أثناسيوس بالد» Athanasius Balad أسقفاً يعقوبياً سنة ٦٨٤ م. والمعروف عنه أنه ترجم الايساغوجي الى السريانية ، ولا تزال هذه الترجمة محفوظة الى اليوم في قصر الفاتيكان . وهو من تلاميذ سويرس سيبوقط .

كذلك كان يعقوب الرهاوي Jacob of Edessa تلميذاً لسيبوقط ، وصار أسقفاً في الرها Edessa سنة ٦٨٤ ، وترك منصبه هذا سنة ٦٨٨ لأنه عجز عن

ادخال الاصطلاحات في الاديرة التابعة لبرشيتيه . واعتزل في دير «مار يعقوب» في «قيسون» بين حلب والرها . ثم تركه الى دير آخر في أبرشية انطاكية حيث أمضى أحد عشرة سنة يعلم المزامير ، ويقرأ الكتاب المقدس باللغة اليونانية حتى أحبي أمواتها ، بعد أن كادت تموت بالاخفال . غير أنه لم يعش هنالك هادئاً فان أعداءه اضطهدوه بحجة أنه يعلم الكتاب المقدس باللغة اليونانية . فسافر ثم عاد الى الرها قبيل موته بأربعة اشهر فقط . وكتب في ذلك الحين مقالا طبياً في المصطلحات المستعملة في الفلسفة ، ولا يزال محفوظاً في المتحف البريطاني في المجموعة ١٢١٥٤ .

ومن تلاميذ (أتناسيوس) المذكور آنفاً (جورجيس) James Bishop of The Arabs الذي سيم أسقفاً للعرب سنة ٦٨٦ م . وقد ترجم كل كتاب أرسطوطاليس في المنطق (الاورغانون) Logical organon ولا يزال محفوظاً من ترجمته حتى اليوم في المتحف البريطاني في المجموعة ١٤٦٥٩ كتاب قاطيغورياس وإرمانوطيقا ، وانايطيقا الاولى ، وكل من هذه الكتب مقدم بتصدير وعليه تعليقات .



إن هؤلاء الاعلام الذين عرض ذكركم حتى الآن في سياق هذا المقال هم الذين يكونون تاريخ الفكر في العصور القديمة منذ انفصل النساطرة واليعاقبة حتى الفتح العربي . وان هذا لكاف لظهار أن المتكلمين بالسريانية قد ظلوا طوال تلك الاعصر على ما كتب أرسطوطاليس في المنطق وما بعد الطبيعة عاكفين ، ولم يقتهم أن يعنوا بالطب ودرس كثير من فروع العلوم الأخر . غير أنك إن بحثت في أعمال هؤلاء جميعاً لما وقعت على شيء من قوة الابتكار الحقيقي . أو على تعمق في الدرس العلمي ، أو التأمل الفلسفي الصحيح . لأن جماعها في تلك الحركة لم يكن الا نقل المتون الموجودة بين أيديهم ، مع اصدار تراجم

جديدة فيها ، أو تعليقات عليها ، أو مقالات تفسيرية تحشى بها . على أن هذه الاشياء بدورها قد سدت فراغا كبيرا في تاريخ الفكر الانساني .
على أن الفتح العربي لم يحدث من أثر يصد تلك البحوث العلمية عن الانبعاث في طريقها . فبنو أمية لم يفكروا يوما في التعرض لشئون المدارس الفلسفية ، وكان الطلاب من السريان ممتعين بأقصى حد من الحرية تحت حكم العرب .

أما ما يرويه بعض المتعصبين من المؤرخين في مطاردة العرب لرؤساء الدين المسيحي فكله فاسد من أساسه . فقد كان بعض رؤساء المسيحية يلجؤون الى الخليفة العربي المسلم ويضجون له بالشكوى من اخوانهم في الدين ، وكان ذلك السبب الاكبر في التعرض لشئون النصارى . وهو ما يسميه بعض المؤرخين تعقبا للنصرانية ومطاردة لها . واستمر أساقفة المسيحية على بحبهم العلم والفلسفة حتى سنة ٧٤٠ حين سيم « مار أبها » Mar Abha رئيسا لاساقفة النساطرة فألف تعليقا على منطق ارسطو طاليس .

وكانت سنة ٧٤٠ م أى سنة ١٣٣ للهجرة بدء عهد جديد في تاريخ العربية إذ أخذ أبنائها يبذلون حفاظا غير قليل من الاشتراك في تلقى الفلسفة والعلم ، وبدأت التراجم والتعليقات تظهر في اللغة العربية . على أن الدراسة باللغة السريانية لم تفقد أهميتها فجأة ، بل ظلت موثلا للعلم ومهدا للفلسفة حتى زمان « أبي الفرج بن العبري » في القرن الثالث عشر الميلادي (١٢٨٦) الذي ينتهي به تاريخ الآداب السريانية سوف نعود الى الكلام فيه .

وكونت أول مدرسة صهيحة للترجمة في العالم العربي من حنين بن اسحاق وابنه اسحاق بن حنين وابن اخته حبيش الاعسم الدمشقي ، مع غيرهم من المترجمين ، تلك المدرسة التي أسسها في بغداد الخليفة المأمون لتتنقل المتون اليونانية في الفلسفة والعلوم الى العربية . وذلك ما سوف نعود اليه بعد .

غير أننا لا ننسى هنا أن حنين بن إسحاق كان مسيحياً لسطوريا واشتغل زماناً بالترجمة من اليونانية الى السريانية . والمقول إنه ترجم من السريانية ، الا أنه راجع فقط ، على الرواية الصحيحة ، الايساغوجي لفرفوروس ، وارمانوطيقا لارسطوطاليس ، وجزءاً من الاناليطيقا ، ومقالة لارسطوطاليس في الروح المسماه « ده أنيا » de Anima وجزءاً من الميتافيزيقا — مابعدالطبيعة — وتلخيصات نيقولاوس الدمشقي ، وتعليقات الاسكندر الافروديسي ، والجزء الاعظم من مؤلفات جالينوس Galen وديوسقوروس Dioscorus وبولس الاجانيطي ، وأبقراط .

كذلك ترجم ابنه اسحاق مقالة ارسطوطاليس (de Anima) في الروح . ومن الغريب أن تصبح ترجمة اسحاق لهذه المقالة وتعليق الاسكندر الافروديسي عليها مرجعاً من أهم المراجع لدرس الفلسفة في عصرنا هذا ، ذلك لان الفكر قد اتجه الى درس علم النفس — البسيكولوجيا — في العصر الحديث ، كما انه أخذ يعتمد عن درس المنطق حالا بعد حال .

وفي ذلك العصر ألف الطبيب « يوحنا بن ماسويه » (٨٥٧ م) مؤلفات كثيرة في الطب باللغتين السريانية والعربية . وكان ، كما كان حنين بن اسحاق ، أحد الذين انتخبهم العباسيون واحلوهم محلاً رفيحاً من الاحترام والاجلال وحوطوهم بالعناية في بغداد عاصمة ملكهم ، لينقلوا فلسفة اليونان الى العربية . وعاصر هؤلاء فئة من الكتّاب السريانيين كتبوا تعليقات على منطق ارسطوطاليس وهو كما يقول العرب « أبوزكريا يوحنا بن ماسويه » . وكان أبوه صيدلياً في جنديسابور وثقفه في بغداد جبرائيل بن بختيشوع . واشتهر في زمان المأمون والواثق الى زمان المتوكل . (راجع أخبار الحكماء ص ٢٤٨ طبع مصر)

وفي القرن الثاني عشر المسيحي علق « ديونسيوس بارصاليبي » Dionisius bar Salibi على كتاب الايساغوجي وقاطيغورياس وارمانوطيقا وانايطيقا . وفي أوائل القرن الثالث عشر كتب « يعقوب بارشاقاقو » Jacob bar Shakako

مجموعة من المحاورات، تكلم في الجزء الثاني منها على مسائل كثيرة في الفلسفة والمنطق والفوسيقى (١) - Physics - والرياضيات وما بعد الطبيعة.

وينتهي العصر السرياني في نقل الفلسفة بالباحث « غريغوري بار إبروس » - Gregory Bar Hebraeus - الذي تقدم ذكره ، وهو الملقب « بابي الفرج بن العيري » Abu l' Farag في القرن الثالث عشر الميلادي . وقد نلخص في كتابه « إنسان العين » ، وهو مجموعة ملخصات في المنطق ، كتاب ايساغوجي لفرفوروس ونلخص عن ارسطو طاليس كتاب المقولات - قاطيفورياس - وارمانوطيقا أي العبارة ، وانايطيقا أي القياس ، وطويقا Topica أي الجدول ، وسوفسطيقا - Sophistica - أي السفسطة . وكتب كتابا آخر نلخص فيه مقدمات للمنطق والفوسيقى وما بعد الطبيعة واللاهوت . وسمى هذا الكتاب على ما نلظن « عيون الحكمة » . وله كتاب ثالث اذكر ان اسمه « زبدة العلوم » أو ما يقارب ذلك هو عبارة عن موسوعة جمع فيها فلسفة ارسطو طاليس ، واختصر ذلك الكتاب من بعد تحت عنوان آخر . وترجم عن السريانية مؤلف « ديوسقورس » في البسائط ، وألف مقالة في الطب أجاب بها على « مسائل » حنين بن اسحاق ، وله كتاب آخر في الجغرافية لا اذكر اسمه العربي .

ويعرف أبو الفرج في العالم اللاتيني باسم « أبولفرجيوس » (٢) أما الاسم « بارابراوس » فراجع الى أصله العبري . ولد في مدينة من مدائن أرمينية

(١) ترجمنا كلمة Physics وهي المصطلح على ترجمتها « بالعلم الطبيعي » بكلمة « فوسيقى » تميزا لها عن كلمة Nature أي طبيعة ولنتكلم بذلك استعمال مضاف ومضاف اليه في ترجمة كلمة واحدة في اللاتينية . ولنا باستعمال العرب كلمة موسيقى Music أسوة في الاصطلاح على هذه الترجمة

(٢) عن المقتطف مجلد ٣٠ ص ٨١ - هو جمال الدين أبو الفرج مارغريغور يوس الملطي ولد بقرية ملطية في آسيا الصغرى ثم رحل مع أبيه الى انطاكية وقرأ الطب على أبيه واشتغل بالعلوم اللاهوتية والرياضية والفلسفية في انطاكية ثم انقطع في بعض الاديرة وصار اسقف غوبا ثم حلب على اليعاقبة . ومؤلفاته كثيرة جدا أشهرها تاريخان بالسريانية والعربية ينتهيان الى سنة ١٢٨٤ م . والعربي منها تاريخ الدول . وتوفي في مراغة اذربيجان سنة ١٢٨٦ م .

سنة ١٢٢٦ وكان أبوه « هرون » طبيباً . وبعد أن تلقى على أبيه زماناً استعمق في دراسة الطب حتى نال منه حظاً موفوراً . وكانت معرفته بالعربية والسريانية واليونانية ، وتنطسه في الفلسفة واللاهوت ، سبباً في أن يذيع صيته ويرتفع ذكره . وفي سنة ١٢٤٤ م انتقل الى انطاكية Antioch ، وبعد ذلك بقليل ذهب الى طرابلس وصار أسقفاً في « غوبا » وله من العمر عشرين سنة . ومن ثم انتقل الى أبرشية حلب وانتخب سنة ١٢٦٦ رئيساً لاساقفة اليعاقبة ، وظل أسقفاً حتى توفي براغه أذربيجان سنة ١٢٨٦ .

وأبو الفرج إن كان قد كتب في كثير من فروع العلوم المعروفة في عهده ، إلا أن شهرته تنحصر في العالم اللاتيني على الاخص في تأليفه كتابا وضعه في تاريخ العالم منذ الخليفة الى زمانه . وكتبه في السريانية أولاً ، وبعد زمان كتب له مختصراً في اللغة العربية . وقيمة الكتاب الحقيقيه ، على ما يقول كثير من المستشرقين ، تنحصر في كلامه عن الامم الشرقية وأصلها كالعرب والتتار والمغول وغزوات جنكيزخان . أما ما بقى بعد ذلك فملوء بالاغلاظ ، لانه لم يكن واقفاً على عدة من اللغات القديمة التي كان لا بدله منها للاستعانة بها على ضبط أسانيدہ . وقد ترجم المختصر العربي الى اللاتينية بعناية الدكتور « بوكوك » Dr. Pococke وطبع في ا كسفورد سنة ١٦٦٣ . وظهر جزء من المثن العربي مع ترجمته اللاتينية بعناية الاستاذين برونس وكيرش Brons and Kirsche مطبوعاً في ليبرج سنة ١٧٨٨ .

وقد اعتبر « أبو الفرج » من الثقات في السريانية وعلومها وترجماتها وظل له الخطر الاكبر في نظر طلاب العلم زماناً طويلاً ، في حين أنه لم يتعد ، كما يؤخذ من تاريخه الذي حققه المستشرقون ، حد الجمع عن سبقه من الكتاب والفلاسفة في موسوعة تضمنت ابحاثهم .

كانت الجامعات السريانية التي دانت بالمسيحية بيئة طيبة انتعشت فيها الفلسفة

اليونانية والعلم اليوناني ، ومن ثم انتقل كلاهما الى العرب ، على انه لم تتم بين
السريان روح الابتكار والاستقلال في الرأي العلمي ، حتى أن الكتب التي
ترجمت الى السريانية ، كانت قد خرجت من يد اليونان انفسهم من قبل ان
تنتقل الى السريان . وكان المعتقد الثابت عندهم أن اساس العلوم الانسانية هو
منطق أرسطو وليس . أما ما بقي مما درس أو كتب المعلم الاول فيجب ، على
معتقدهم ، ان يفسر على قواعد « الافلاطونية الجديدة » ومن علق عليها . أما
في الطب والكيمياء فان برنامج مدرسة الاسكندرية فيهما كان معتبراً أرقى مايصل
اليهالتشيف في هذين العلمين . على ان هذا الامر لو اقتصر على ما نقل عن جالينوس
وابقراط ، وعلى تعاليم « بولس الاجانيطي » في طب التوليد ، لكان خيراً للناس ،
لولا أن امتزج بتلك العلوم قسط من الباطنية *Mysticism* كان ذاتها في مدرسة
الاسكندرية ، وكان قوامه علم التنجيم - الاسترلوجيا . فمزج العلم بالاساطير ،
وشاعت فكرة أن بعض العقاقير الطبية لا تفيد فائدتها المرجوة ، الا عند مرور
نجم من النجوم السيارة ، وما يجري ذلك المجري من المفكرات الخيالية التي
صبغت الطب في الاسكندرية ، ومن بعد عند العرب ، بصيغة من السحر
والشعوذة عاقت خطاه دون الانبعاث في سبيل التقدم والرقى أزماناً متعاقبة .

ولا سبيل الى القول بان علم العرب في الطب والكيمياء كان عبارة عن تدجيل
صرف كما يقول بعض الذين لم يتجشموا مؤونة البحث والتحقيق . ففي العربية مؤلفات
قيمة خدمت هذين العلمين اجل الخدمات واكبرها شأنًا ، ولو ان الجمود الفلسفي
الذي شاع في مصر كان في الغالب السبب في صد تيار التقدم فيهما وعاق خطى
الباحثين دون الابتكار طويلاً .

* * *

من هنا نعتقد أن اللاهوت والفلسفة والعلم في الاسلام لم يفرس الا في أرض
شبتت من قبل بالثقافة اليونانية على اختلاف ضرورها وتباين الوانها . أما السبيل

التي خطت فيها الثقافة اليونانية الى العرب فذات خمس مفاوز .
أولاً — النساطرة، الذين كانوا أول من علم المسلمين وأول الذين خدموا
الطب في العصور الاوّل .

ثانياً — اليعاقبة الذين كانوا أول من أدخل الباطنية والافلاطونية الجديدة
في الجوالعربي .

ثالثاً — الزرادشتيون في فارس وعلى الاخص مدرسة جنديسابور ، ولو ان
هذه المدرسة قد امتزجت بعنصر قوى من عناصر النسطورية .

رابعاً — وثنيو « حران » ولو ان اثرهم في الاسلام لم يأت الا مؤخراً .

خامساً — العبرانيون ، على أنهم لم يكونوا على صلة بالفلسفة الارسطوطالية،
وظلت مدارسهم في صور Sora « وبامباديثا » Pambaditha عاكفة على درس
شرائعهم التقليدية .

لم يبدأ العبرانيون في درس الفلسفة الا في العصور المتأخرة وقد استمدوا من
فلاسفة العرب. غير أنهم ورثوا عن النساطرة نزعة الى علم الطب ، حتى أن الاطباء
اليهود قد ظهروا في أوائل عمارة بغداد. غير أنهم لم يبرزوا النساطرة في ذلك . فمن
بين الاطباء الذين يذكرهم العلامة « لكلامر M. Leclercq في كتابه تاريخ الطب
عند العرب Histoire de la Medicine Arabe في القرن العاشر الميلادي ٢٩ طبيبياً
مسيحياً وثلاثة من اليهود واربعة من وثني حران . في حين ان النسبة اختلفت
في القرن الحادي عشر ، فكانوا ثلاثة مسيحيين وسبعة من اليهود ، ومن ثم
تكاثر الاطباء العرب من بعد ذلك كثرة لا تحفظ فيها النسبة بينهم وبين غيرهم .

* *

— ٣ —

لم تمض على سقوط دولة بني أمية في الشام ثمانون عاماً الا وكان بين يدي العرب
مترجات عن أكثر ما كتب « أرسطوطاليس » وتعليقات الذين اشتهروا من

زعماء « الأفلاطونية الجديدة » وبعض كتب أفلاطون ، والجزء الأكبر من كتب « جالينوس » وأجزاء أخرى نقلت عن كتب بعض الأطباء والذين علقوا عليها ، وطائفة غيرها من كتب حكماء اليونان وكتاب الهند وفارس . لم يأت بعد هذه الحركة العلمية من مثيل لها في التاريخ إلا حركة النهضة العلمية في إيطاليا بعد سقوط القسطنطينية في يد محمد الفاتح ، مؤسس دولة بني عثمان في ربوع أوروبا .

وينقسم تاريخ الترجمة عند العرب الى قسمين عظيمين : يبتدىء أولهما بقيام دولة العباسيين الى قيام المأمون بن هرون الرشيد أي من سنة ١٣٢ هـ - ٧٤٩ م إلى سنة ١٩٨ هـ - ٨١٣ م وقد ترجم في هذا العهد كثير من الكتب نقلها كتاب ومترجمون نالوا الحظوة الكبرى عند خلفاء بني العباس وكان كل منهم يشتغل مستقلاً بنفسه ، وأكثروا من المسيحيين والاسرائيليين ، وبعض الذين اعتنقوا الاسلام من أهل الوثنية والديانات الأخرى . ويبدأ ثانيهما بقيام المأمون والذين عقبوه على كرتى الخلافة من العباسيين . وأخص ما يمتاز به هذا العصر تأسيس تلك الأكاديمية الكبيرة (بيت الحكمة) التي أقامها المأمون في بغداد ، فجمعت بين جدرانها فئة صالحة من المشتغلين بالعلم والفلسفة والترجمة ، وكان همهم ان يصيغوا الكتب التي ينقلونها ، أو التي نقلت ، في قالب يستطيع به طلاب العلم من العرب الوقوف على اسرار العلم والحكمة

كان أول عهد للترجمة في العالم العربي مقرونا باسم « عبد الله المقفع » وهو من أبناء فارس ، زرادشتي الديانة ، اعتنق الاسلام على يد محمد بن علي أبو السفاح . وكان من المقربين في بطانته . على أن نهاية ابن المقفع كانت محزنة ، فانه مات مقتولا بأمر الخليفة المنصور الى سفيان حاكم البصرة ، وكان بينه وبين ابن المقفع ترة ، فقتل في قتله . وكان ذلك سنة ١٤٢ هـ - ٧٥٩ أو ١٤٣ - ٧٦٠ م ويقال إن إسلام ابن المقفع كان ظاهرياً ، وأنه ظل أميناً للزرادشتية . فكان

يعتبر زنديقاً . والزنادقة اصطلاح يعنى به « المانويون » أتباع « ماني بن فاتك » (١) وهم قوم من الوثنيين يقدسون الليل .

ولقد عثرت على قصيدة فيها ذكر للمانويين وتقديسهم لظلمة الحلك وضعها حافظ بك ابراهيم ترجمة لقصيدة شكسبير في رواية « مكبث » وكان قد ترجم الرواية كلها ولكن الترجمة فقدت . واليك مطلع القصيدة :

كأنى أرى في الليل نصلاً مجرداً . يطير بكلتا صفحتيه شرار

أراه قبتدني إلى شراستي . فينأى وفي نفسى إليه أوار

وقال بعد أن تملكك من « مكبث » نزوة القتل ونهمة الدماء .

فياحلم قاطعنى ويارشد لا تثب . وياشر مالى من يديك فرار

وياليل أنزلى بجوفك منزلاً . يضل به سرب القطا ويحار

وإن كنت ليل المانوية فليكن . على سر أهل الشر منك ستار

على الفتك يا ضنكان صحت عزيمتى . وإن لم يكن بينى وبينك ثار

سأقتل ضيفى وابن عمى ومالكي . على أن عقبى القاتلين خسار

قال هذا في مناجاة « مكبث » لنفسه قبل أن يقدم على الفتك بضنكان .

والقصيدة مظلولة نشرتها جريدة الاهرام منذ بضع سنين .

غير أن كتاب المساهين استعمالوا لفظ « زنديق » مطلقاً من غير تحديد على

فئات من الخارجين عن الاسلام ، فكان يعنى به أتباع « زرادشت » آونة ، أو

النصارى آونة أخرى ، وكثيراً ما كان يعنى به المجوس ، عبدة العناصر .

ومما يستدل به الكتاب على زرادشتية ابن القفع واتخاذة الاسلام ستاراً

(١) ظهر ماني في أيام سابور بين أردشير وقتله بهرام بن هرمز بن سابور سنة ٢٧٧ للميلاد . وأخذ ديناً بين المايجوسيه والنصرانية وكان يقول بنهية عيسى وينكر نبوة موسى

عليهما السلام . قال صاحب الفهرست ان ماني زعم ان العالم موضوع من أصلين قديمين هما

النور والظلمة وأنهما أزليان سرمديان وأنه ما من شيء الا وهو في الاصل قديم . على ان

تقديس المانويين لليل امر معروف

روايه رواها بعض الكتاب اذ ذكر أن ابن المقفع مر يوماً ببیت من بيوت النار
فتمثل بقول الاحوص :

يا بيت عاتكة الذي أتعزل حذر العدى وبه الفؤاد موكل
إني لامنحك الصدود وإنني قسما اليك مع الصدود لامليل
وقيل إنه كثيراً ما كان يقول :

الارض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة منذ كانت النار

على أن ابن المقفع قد نقل بالفعل شيئاً من مبادئ المانوية عن تعاليم
« ماني بن فاتك » وكتب « بن ديسان » الى العربية . بذلك يقول المسعودي
جزء ٨ ص ٢٩٣ . طبع لبيزج م

وفي زمان الخليفة المنصور نقلت كتب عديدة الى العربية عن اليونانية
والفارسية والسريانية . على أن الكتب التي نقلت عن الفارسية والسريانية لم
تكن في أصلها الا تراجم عن اليونانية .

وأشهر ما ترجم ابن المقفع كتاب « كليلة ودمنة » أو كما كان يدعى في
الفهلوية والسنسكريتية القديمة « أساطير الفيلسوف بيدبا » . ترجم ابن المقفع هذا
الكتاب وكان قد نقل لكسرى أنوشروان الى اللغة الفهلوية عن السنسكريتية ،
لغة الهند القديمة ، نقله الحكيم « برزويه » بعد أن سافر الى بلاد الهند في طلبه
واستنسخه من الخزانة الملوكية مع طائفة أخرى من كتب الهند .

ولقد فقد الاصل الفهلوي . غير أن المبشر « بوز » النسطوري كان قد
ترجم الكتاب الى السريانية سنة ٥٧٠ م . وطبعت هذه الترجمة بعناية
المستشرقين « بيكل » Bickell و « بنفي » Benfey سنة ١٨٧٦ وكذلك فقد
الاصل السنسكريتي القديم ولم يبق منه الا آثار نشر بعضها في كتاب
« بانشاتنرا » Panchatantra وهو يحتوي على الاساطير الخامسة والسابعة والثامنة
والتاسعة والعاشر والسابعة عشرة ، وبعض منها في كتاب « ماهابهارتا »

Mahabhartā وهو يحتوي على الاساطير الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة .

ويجمع المستشرقون أو هم يكادون يجمعون ، على أن ترجمة « بوز » النسطوري لكتاب « بيدبا » المنقولة الى السريانية عن الفارسية ، المأخوذة بدورها عن الاصل السنسكريتي ، هي الترجمة الخالية من آثار الوضع والحذف والاضافة . أما النسخة العربية التي نقلها ابن المقفع فظاهر فيها من آثار الانتحال ما يظهر في كل التراجم السريانية التي ظهرت في أواخر العصر السرياني ، وفي كل التراجم التي اخذت عن النسخة العربية الى الفارسية الحديثه ، والى اللاتينية والعبرية والاسبانية والانجليزية والفرنساوية والالمانية واليونانية . على انه لولا الترجمة العربية ؛ لما نال هذا الكتاب ذلك الصيت البعيد . واسلوب ابن المقفع في كلية ودمنه يعد مثال الاساليب العربية المنتقاة .

وعاش ابن المقفع أكثر من عمره في زمان الخليفة المنصور العباسي . ويقول المسعودي (جزء ٨ ص ٢٩١ - ٢٩٢ طبع ليبزج) أن ذلك الزمان كان خصيباً في الترجمة والانتاج الأدبي ، فنقل فيه عدة مقالات عن أرسطوطاليس ، وكتاب المجسطي لبطليموس في الفلك ، وكتاب أفليدس في الهندسة ، ومواد أخرى عن اليونانية .



في سنة ١٥٦ للهجرة (١) وفد هندي الى بغداد يحمل مقالة في الرياضيات ، وأخرى في علم الفلك . أما الثانية فكانت مقالة « سدھانتا » Siddhanta التي

(١) هذا قول بن القفطي (ص ٢٧٠ من طبعة ليبسك أو ١٧٧ من طبعة مصر) فهو يقول سنة ١٥٦ هـ - (٧٧٣ م) نقلا عن الزبيح الكبير للحسين بن محمد المعروف بابن الآدمي المتوفى في أواخر القرن الثالث الهجري . أما ابيروني فيقول في كتابه تحقيق مالاهند من مقوله مقبولة في العقل أو مردولة المطبوع بلندن سنة ١٨٨٧ ص ٢٠٨ أن ذلك وقع سنة ١٥٤ هـ - (٧٧١ م) .

عرفها العرب من بعد باسم كتاب «السند هند» وترجمها «ابراهيم الفزاري» فكان نقلها بداءة عصر جديد في دراسة هذا العلم عند العرب.
قال الاستاذ نليتو .

«وما اقتصر الخليفة المنصور على مجرد أحكام النجوم وما يتعلق بها ضرورياً ، بل منذ تأسيس بغداد بسنين قليلة بادر إلى أحياء علم الهيئة المحض مستقياً من موارد الهند . والذي دعاه إلى ذلك أن رجلاً هندياً جاء بغداد في جملة وفد السند على المنصور وهو ماهر في معرفة حركات الكواكب وحسابها وسائر أعمال الفلك على مذهب علماء أمته وخصوصاً على مذهب كتاب باللغة السنسكريتية اسمها «ابراهيم سدهانتا» Brahmasphutasiddhanta ألفه سنة ٦٢٨ م — (٦ أو ٥٧هـ) الفلكي والرياضي الشهيد «برهملكيتا» Brahmagupta للملك «فيا كهرمكه» (١) وكلف المنصور ذلك الهندي بأهلاء (٢) مختصر الكتاب ثم أمر بترجمته إلى اللغة العربية وباستخراج كتاب منه اتخذه العرب أصلاً في حساب حركات الكواكب وما يتعلق به من الأعمال . فتولى ذلك الفزاري (٣) وعمل منه زيجاً اشتهر بين علماء العرب حتى أنهم لم يعملوا إلا به إلى أيام المأمون ، حيث ابتدأ انتشار مذهب بطليموس في الحساب والجداول الفلكية»

«أما لفظ سدهانت Siddhanta فعناه بالسنسكريتية معرفة وعلم ومذهب علمي وأطلق ذلك اللفظ اصطلاحاً على كل كتاب في علم الهيئة وحساب حركات

-
- (١) Vyaghramukha وهو الملك فيغر المذكور في كتاب ابن القفطي ٢٧٠ طبعه ليبنرج أو ص ١٧٧ طبعه مصر .
(ملحوظة) فهرست أبواب كتاب السند هند وهي أربعة وعشرون توجد في ص ٧٤ من كتاب البيروني المسمى تحقيق مالهند من مقولة .
(٢) راجع كتاب البيروني في تحقيق مالهند من مقوله ص ٢٠٨ و ٢١١ .
(٣) سماه ابن القفطي (ص ٢٧٠) ليبنرج و ١٧٧ مصر) محمد بن ابراهيم الفزاري .
فراجع ماسأقوله في ذلك عن قريب .

الكواكب . فمعنى «ابراهه سب سندهانتا» كتاب الهيئة المصحح المنسوب الى «برهم» وحذف العرب ثلثي اللفظ مقتصرين على الثلث الاخير وهو «سدهانت» ثم حرفوه قليلا لميلهم الى المزوجة والاتباع في الكلام وضبطوه على وزن أسماء البلاد التي نقل منها الكتاب فقالوا السند هند، وسماه بعض المتأخرين السندهندالكبير، تمييزاً بينه وبين السندهند تأليف محمد بن موسى الخوارزمي في عهد المأمون . وأخطأ مؤلفو العرب في قولهم إن تفسير (سندهند) هو «الدهر الداهر» (١) أو (دهر الدهور) (٢) وسبب ظنهم هذا ما سأشرحه عن قليل من استعمال أدوار سنين لحساب حركات الكواكب في كتاب السند هند . ولم يصب البيروني اصابة تامة في (كتاب تحقيق ما للهند من مقولة ص ٧٣) — «والذي يعرفه أصحابنا (٣) سند هنداً هو سدهاند أى المستقيم الذى لا يعوج ولا يتغير . ويقع هذا الاسم على كل ما علت رتبته عندهم (٤) من علم حساب النجوم وان كان قاصراً على زيجاتنا » أما مقاله المسعودى في أول الباب السابع من كتاب مروج الذهب (ج أول ص ١٤٩ الى ١٥٠ من طبعة باريس) فأكثره خرافات واغلاط لانه خلط «برهمن» (وهو أحد آله الهند «برهمكبت» صاحب كتاب السندهند ثم عكس الترتيب التاريخى لحقيقى للكتب التى ذكرها (٥) لانه أقدمها فى الحقيقة كتاب المجسطى والثانى لارجهر والثالث السندهند والرابع الاركنند» (٦)

(١) هكذا ابن القفطى ص ٢٦٦ و ٢٧٠ طبع ليزنج (ص ١٧٥ و ١٧٧ من طبعة مصر) نقلا عن زيح بن الأدمي .

(٢) هكذا المسعودى فى الباب السابع من كتاب مروج الذهب ج ١ ص ١٥٠ من طبعة باريس ومن كتاب التنبيه ص ٢٢٠

(٣) أى العرب

(٤) أى عند الهند

(٥) ويوجد أيضاً هذا الترتيب المكوس فى كتاب التنبيه ص ٢٢٠

(٦) ترتيب كتب الفلك حسب أقدميتها لا يترتب عليه أنها عرفت عند العرب بهذا الترتيب ، فلا شك مثلاً فى أن كتاب السند هند عرف عندهم قبل كتاب المجسطى لبطليموس وان كان فى الطبقة الثالثة من الاقدمية والمجسطى فى الطبقة الاولى — مظهر

« وطريقة الكتب الهندية في تعليم حساب حركات الاجرام السماوية طريقة غريبة مبنية على ما يسمى بالسفسكريتية « كल्प » (١) وهي جملة الوف الوف أدوار تامة للنيرين والكواكب الخمسة المتحيرة. فان الهند زعموا أن كل الكواكب غير الثابتة خلقت مجتمعة مع أوجاتها وجوزهراتها في أول برج الحمل، أعني في منطقة الاعتدال الربيعي، ثم أخذت تتحرك حركات مختلفة السرعة، وبعد الوف الوف أدوار تامة ستجتمع كلها ثانية في أوجاتها وجوزهراتها في أول الحمل (٢) وجملة السنين الشمسية النجومية (٣) الفائة بين الاجتماعين الكليين تسمى « كल्प ». وعدد سني « كल्प » النجومية على حساب كتاب « برهمكبت » أربعة آلاف الف الف وثلاثمائة وعشرون الف الف — (٤٣٢٠٠٠٠٠٠٠٠) فيتم مثلها فيها عطارد سبعة عشر الف الف الف وتسعمائة وستة وثلاثين الف الف وتسعمائة وثمانية وتسعين الفاً وتسعمائة وأربعة وثمانين (١٧٩٣٦٩٩٨٩٨٤) دوراً تامة ويتم أوجه ثلاثمائة واثنين وثلاثين دوراً تامة . »

(١) Kalpa

(٢) ولذلك قال ابن قتيبة في كتاب الشعر والشعراء ص ٥٠٤ من طبعة ايدن سنة ١٩٠٤ م (وهذا النص ناقص من طبعة مصر سنة ١٣٢٢ التي لا تحتوي على كل التراجم): « وأصحاب الحساب يذكرون أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة وائفة في برج ثم سيرها من هناك وانها لا تزال جارية حتى تجتمع في ذلك البرج الذي ابتدأها فيه واذا عادت اليه قامت القيامة وبطل العالم . والهند تقول انها في زمان نوح اجتمعت في الحوت الا يسيرا منها فهلك الخلق بالطوفان وبقي منهم بقدر ما بقي خارجا عن الحوت. ولم أذكر هذا لانه عندي صحيح، بل أردت به التنبيه على البيت » يريد بيتا من شعر أبي نواس .
ويقول الاستاذ نالينو :

« واني أظن أن الهند إنما أخذوا مثل هذه الاعتقادات عن قدماء بابل . فستفيد مثلا من « سنكا » اللاتيني الشهير Seneca, Naturales Quaestiones III.P,29 ان بروسوس Berossos الكاهن البابلي النابغ سنة ٢٧٥ ق.م قال في كتابه عن قدماء أهله يكون الطوفان كلما اجتمعت الشمس والقمر والكواكب الخمسة المتحيرة في برج الجدي ويكون الحريق العام كلما اجتمعت في برج السرطان . ومن الغريب أن الذين اعتنوا بنص سنكا ذلك حديثا لم يفهموا حقيقة معناه وانه من باب مذهب القرانات العظمى المشهورة عند أصحاب أحكام النجوم فليصح مقاله شنابل الالماني : Schnabel : Apokalyptisch Berechnung der Enbzeiten bei Berossos Orientalistische Literaturzeitung, September 1910 col 402 (٣) السنة النجومية (Anné siderale) هي الزمان الذي تستغرقه الشمس للرجوع الى نجه ثلاث ففروض . وهي أطول من السنة الانقلابية بشيء يسير جدا .

« فسمت العرب جملة سني « كلب » سني السند هند (١) وجملة الايام ايام السند هند و ايام العالم . (٢) — وتسميها للحساب ربما اتخذ الهند جزءاً من الف جزء من « كلب » أصلاً لحساباتهم وسما ذلك الجزء (مهايك) (٣) أو (يك) (٤) فصار عبارة عن مدة أربعة آلاف الف وثلاثمائة واثنين وثلاثين الف سنة . إلا أن الادوار فيه غير تامة بسبب الكسر الناشيء عن القسمة . وبما أن أحد حكماء الهند الذين ذهبوا الى هذه الطريقة وعلمها بنوا الحساب هو آريهبط (٥) المسمى عند العرب بالارجبهر (٦) اشتهرت جملة سني (يك) عند العرب باسم « الارجبهر » أو ايام الارجبهر (٧) وبعض العرب القدماء زعموا أن الارجبهر اسم الجزء من الف جزء من سني السند هند (٨) بل انه اسم كتاب مستخرج من كتاب السند هند (٩) مع ان الاول أقدم من الثاني .»

(١) قال البيروني في كتاب تحقيق مالا هند من مقولة ص ١٦٩ (كلب وهو الاسم الذي يسميه أصحابنا سني السند هند (٢) البيروني ص ١٨٥ وكتاب التنبيه للسعودي ص ٢٢٠ و ٢٢١ (٣) mahayuga (٤) yuga (٥) Aryabhata الف كتيبه في أواخر القرن الخامس للمسيح (٦) ان العرب في الالفاظ الهندية بدلوا أكثر اليباءات الاصلية جيا وكذلك في هذا الاسم أما الراء الاخيرة فقال البيروني ص ٢١١: (آرجبهـ . والهند يخرجون هذه الدال فيما بينها وبين الراء . فانتقل الى الراء و صار آرجبهر) أما الارجبهر بالزاي كما يوجد أحيانا فتصحيف (٧) كتاب الآثار الباقية للبيروني ص ٢٥

(٨) قال البيروني في كتاب تحقيق مالا هند من مقولة ص ٢١١ ان الفزاري ويعقوب ابن طارق ممن ذهبوا الى ذلك الظن .

(٩) قال المسعودي في مروج الذهب ج ١ ص ١٥٠ . وروى في التنبيه ص ٢٢٠ (كيف عمات الهند كتاب الارجبهر من كتاب السند هند . والارجبهر جزء من الف جزء من السند هند) . وفي كتاب «البدء والتاريخ» للمطهر بن طاهر القديسي ج ٢ ص ٤٦٦ من طبعة باريس سنة ١٩٠١ «الصف الثاني أصحاب الارجبهر جعلوا سني عالمهم أربع مائة الف واثنين وثلاثين الف سنة وسنو هذه الفرقة جزء من عشرة آلاف جزء من السند والهند (مكندا) . ولكن في هذا النص نقص ظاهر لعدم ذكر الصف الثالث بين الثاني والرابع فالاحتمل أنه سقط شيء بعد «عالمهم» وان الباقي وصف الصف الثالث ولا وصف صف اصحاب الارجبهر . وعدد ٤٣٢٠٠٠ سنة يوافق عدد السنين المسماة هازروان عند الهند التي بنى عليها يعقوب بن طارق حساب أوساط الكواكب في زيجه (اطلب ما نقول في يعقوب بن طارق ص ١٦٧) — ومن الغريب أن المسعودي في مروج الذهب ج ١ ص ١٥٢ سمي هازروان جملة (٤٣٢٠٠٠ ر ٠٠٠) سنة «مدة ستة وثلاثين الف سنه» وضمروية في اثني عشر الف عام وهذا عندهم هو الهازروان» وكذلك في التنبيه ص ٢٠١ و ٢٢١ . ولكن من دون ذكر اسم الهازروان . ولعل الصحيح في «اثني عشر جاما» أي ٤٣٢٠٠٠ انتهى

أما المقالة ارياضية التي وفد بها ذلك الهندي مع كتاب (السند هند) فكان لها أثر كبير في درس الرياضيات ، ولو لم يكن لها من أثر إلا ادخال الارقام الهندية واتخاذها أساساً للعدد في العربية ، لكفى بذلك أثراً خالداً . فقد تطور على أثرها علم العدد عند العرب وسار بتلك الخطى الخثيثة التي كان يعوقها دائماً استعمال العرب لغير الهندية من الارقام المعقدة المهوشة

وهنا يحق لنا أن نتساءل: «ماذا كان أثر ذلك على العقل العربي؟ وماذا ترك من الآثار؟»

يخطر على البال عند هذا السؤال علم الجبر . على أن لعلم الجبر تاريخاً يتقدم وجود العرب . لهذا نتكلم باختصار لتعرف تاريخ نشأته وكيف انتقل الى العرب وماذا كان أثرهم فيه ؟

نتساءل في أى عصر وفي أية بقعة من بتاع الارض وجد علم الجبر؟ ومن هم أول الذين كتبوا فيه؟ وكيف نشأ؟ وبأية وسيلة من الوسائل وفي أى عهد من التاريخ ذاع ذلك العلم ؟

كان الاعتقاد السائد في القرن السابع عشر أن رياضيين اليونان لا بد من أن يكونوا قد استكشفوا تحليلاً دقيقاً لطبيعة علم الجبر على الصورة التي عرف بها في العصر الحديث ، وبه استطاعوا أن يحلوا تلك المعضلات التي لا يسعنا الا الاعجاب بثبات قدم كتابهم في معالجتها ، وأنهم أخفوا طرق التحليل وأظهروا النتائج فقط .

على أن هذه الفكرة قد تبددت الآن ؟ فقد دلت المستكشفات الحديثة على أن رياضيين القدماء كان عندهم طريقة للتحليل ، ولكنها اقتصرت على الهندسة ، وأنهم لم يعرفوا من الجبر على صورته الحديثة شيئاً . غير أنه إن لم يثبت لدينا أن متقدمي الاغريق كانوا على علم بالتحليل الجبري ، فاننا نجد في عصورهم الاخيرة أدراً تدل على أن مبادئ التحليل الجبري كانت معروفة لديهم .

في أواسط القرن الرابع الميلادي ، وهو عصر بلغت فيه الرياضيات أحدها دركاتها ، قنع المشتغلون بذلك العلم بأن يعلقوا على ما كتب الذين تقدموهم . على أنه بالرغم من ذلك بدأ علم الجبر يتبوأ المكان اللائق به بين العلوم والمعارف الانسانية :

في ذلك الحين كتب الرياضي « ذيوفانتس » الاغريقي Diophantes كتابا في علم العدد ، كان يتكون من ثلاث عشرة مقالة ، لم يصل اليها منها سوى المقالات الست الاولى ، ومقالة ناقصة ، يظن أنها المقالة الثالثة عشرة من الكتاب الاصلي . غير أن هذا الكتاب لا يكون مقالة تامة في علم الجبر ، ولكنه يضع أساساً ثابتاً يمكن أن يقوم عليه ذلك العلم . فإن المؤلف بعد ان كتب قليلا في المعادلات البسيطة والمعادلات الرباعية ، عاد الى الكلام في مسائل رياضية أخرى ، ذات علاقة مباشرة أو غير مباشرة بعلم الجبر .

قد يصح أن يقال إن « ذيوفانتس » هو واضع علم الجبر في اللغة اليونانية وبين الاغريق . غير أن الدلائل تدل على أن المبادئ الاولية التي بثها في كتابه كانت معروفة من قبل ، وأنه اتخذها قاعدة بنى عليها كثيراً فيما كتب ، وأنه ابتكر فيها مبتكرات ذات بال . ومن الثابت أن هذا العلم ظل واقفاً عند الحد الذي تركه فيه « ذيوفانتس » حتى نقات مقالاته الى ايطاليا في بدء النهضة العلمية .

وعلمت السيدة (هيباشيا) Hypatia (١) ابنة ثيون Theon على كتاب (ذيوفانتس) ، غير أن هذا التعليق قد الآن ، كما فقدت مقالاتها على كتاب (أبولونيوس) Appolonius في القطوع المخروطية . وهي سيدة من ذوات النبوغ

(١) هيباشيا (٣٧٠ — ٤١٥) ب م من كبار من اشتغل بالرياضيات والفلك . ولدت بالاسكندرية وعاشت بها . وهي ابنة ثيون Theon وكان فيلسوفا رياضيا وقد علق على مبادئ اقليدس وعلى كتاب المجسطي في الفلك . ويقال بان لابنته أثرا كبيرا في هذه التعليقات المدرسية . وكان قد اعترف بها كرئيسة لجماعة الافلاطونيين الذين كان يطلق على مذهبهم اسم الافلاطونية الجديدة . وكانت على جانب كبير من العلم والفصاحة وبلاغة التعبير .

ذهبت ضحية الجهل والتقصير الديني في أوائل القرن الخامس الميلادي (١) ويدعى هذا الكاتب عند العرب (ذيوفانتس) : وجاء في اخبار الحكماء ص ١٢٦ أنه (ذيوفانتس) اليوناني الاسكندراني فاضل مشهور في وقته وتصنيفه وهو صناعة الجبر ، كتاب مشهور مذكور خرج الى العربية وعليه عمل أهل هذه الصناعة . فكان ذيوفانتس كان من نوابغ مدرسة الاسكندرية في أوائل القرن الخامس الميلادي .

كان أول ما كشف كتاب (ذيوفانتس) الذي المعنا اليه مكتوبا باللغة اليونانية في أواسط القرن السادس عشر الميلادي في مكتبة قصر الفاتيكان . والراجح أن يكون قد نقل اليها عند ما سقطت القسطنطينية في يد محمد الفاتح وترجمه الكاتب (كزيلاندر) Xylander سنة ١٥٧٥ الى اللاتينية وأذاعه في العالم اللاتيني . وتبع ذلك ترجمة أخرى أتم من الاولى وضعها (باشيه ده ميزريا) Bachet de Mezeriac سنة ١٦٢١ ، وهو من أقدم الاعضاء الذين أسسوا الاكاديمية الفرنسية . وكان (ميزريا) رياضياً كبيراً ، فاعانه ذلك على فهم المسائل التي عرضت له في الكتاب فكان في النقل أثبت . غير أن متن ذيوفانتس كان من النقص والبلبلي بحيث لم يستطع أن يفهم المترجم قصده في بعض المواضع تماما ، فكان يحدس المعنى أو يتمم النقص ظناً . وبعد ذلك بقليل أضاف الرياضى الفرنسوى مسيو (فرما) M. Vermat إضافات كثيرة على تعليقات (ميزريا) تناول فيها سير من كتب من اليونان في علم العدد . والنسخة التي طبعها

(١) والمحقق تاريخياً أن كتاب أبولونيوس قد ترجم الى اللغة العربية . فقد وجدت نسخة من الكتب السبعة الاولى منه ، لانه مقسم الى ثمانية كتب ، سنة ١٦٥٨ . وكان مسيو بودى أول من عثر عليها في مكتبة فلورنسا . وفي ذلك الحين عاد الاستاذ غولبوس استاذ اللغات الشرقية في مدرسة ليون من الشرق بنسخة عربية من الكتب السبعة وقال ان الثامن لم يترجم الى العربية . ويذكر الاستاذ الدكتور ضروف انه رأى نسخة من كتاب القطوع المخروطية حروفها بلا نقط وأرقامها حروف في مكتبة المدرسة الكلية ببيروت سنة ١٨٨١ ويرجح انها نسخة الطوسي . (راجع المقتطف ص ٤٠٥ مجلد ٢٨) .

(فرما) Verma تعتبر أتم طبعات الكتاب إتقاناً . على أن الترجمة اللاتينية لم تكن أول ترجمته ظهرت لذلك الكتاب . فإن العرب كانوا أول من ترجمه :

ان كتاب (ذيوفانتس) ان كان ذا شأن كبير في تاريخ علم الرياضيات ، فإن أوروبا الحديثة لم تتلق ذلك العلم بداعة ذي بدء عنه ، بل عن طريق العرب . فإن العرب كانوا بعد اليونان أول من عرف للعلوم قيمتها الحقيقية ، في ذلك الزمان الذي كانت فيه أوروبا غارقة في ظلمات الجهالة ، نحملوا أمانة العلم ، وأدوها للذين من بعدهم كاملة غير منقوصة ، بل مزودة بثمار العقل العربي .

ولقد ثبت من التقاليد التاريخية أنهم صرفوا أكبر عناية في جمع ما كتب رياضيو اليونان وترجموا كتبهم وكتبوا عليها تعليقات وشروحا ذات أثر كبير في تقدم علم العدد . يكنى في الدلالة على ذلك أنه لولا ما كتب العرب في تلك العلوم لما عرفت أوروبا شيئاً عن هندسة اقليدس مثلاً

ينسب العرب استكشاف الجبر عادة الى أحد رياضيتهم ، محمد بن موسى ، الذي عاش في أواسط القرن التاسع الميلادي في عهد الخليفة المأمون العباسي ، والمحقق تاريخياً أن « محمد بن موسى » ، ألف مقالة في الجبر . فإن ترجمة لاتينية لتلك المقالة كانت قد أذيعت في عصر النهضة العلمية في أوروبا . غير أنها فقدت . على أن القدر قد حفظ نسخة من الاصل العربي لا تزال في مكتبة « بودلي » بجامعة اكسفورد ، ويقال فيها أنها نسخت سنة ١٣٤٢ ميلادية ، وبنوه ناسخها في أول صفحة من صفحاتها بأن كاتبها فلان « العربي القديم » وعلى هامش تلك الصفحة تعليق فيه ما يدل على أنها أول مقالة كتبت في الجبر وأذيعت بين « المسلمين » . أما المقدمة ففضلا عن تعريفها بالمؤلف فإنها تثبت أن « محمد بن موسى » كان يحثه الخليفة المأمون العباسي على أن يجمع في كتاب واحد ما تناثر خلال كتب الرياضة من مبادئ الحساب الجبري . وكانت هذه الفقرة سبباً في أن يعتقد الباحثون في تاريخ العلوم أن « محمد بن موسى » جمع كتابه هذا جمعاً

من عدة مؤلفات كانت متداولة بين أيدي طلاب العلم في البلاد العربية أو من مؤلفات وصلت اليهم في لغات أخرى .

على أننا لا نجد من دليل يؤيد وجهة نظر الآخذين بهذا الرأي . فانه لم تجر عادة المؤلفين لا من العرب ولا من غيرهم أن يعرفوا بأنفسهم في مقدمات يضعونها لمؤلفاتهم . إذن فمقدمة كتاب « محمد بن موسى » التي يعثر فيها على ذلك القول من عمل غيره . والراجح أيضاً أنها وضعت لنسخة نسخت من الكتاب بعد زمان « محمد بن موسى » أوفى سني حياته ثم تداولتها الأيدي بالنقل حتى وصلت الى مكتبة « بودلى » . ولهذا نرجح أن كتاب « ابن موسى » لا يمكن أن يتميز فيه ناحية النقل عن ناحية الابتكار الصرف .

يؤيد هذا الرأي أن « محمد بن موسى » كان متضلعا في علم الفلك ، عارفا بما وصل اليه أهل الهند في علم العدد والحساب . فالراجح أن يكون قد نقل عن الهند وأخذ عنهم . ولقد ثبت بما لا سبيل الى ادحاضه أن أهل الهند كانوا على علم بالجبر ، بل عرفوا كيف يحلون القضايا غير المحدودة Intermediate problems لذلك يمكن أن يقال ترجيحاً ان الجبر العربي منشؤه الهند أصلاً . ولقد عرفنا كيف أن العرب مدينون لذلك الهندي الذي وفد الى بغداد بمقالة « السند هند » في الفلك وتلك المقالة الرياضية التي اقتبسوا منها الأرقام الهندية .

الا أن العرب لم يقفوا عند حد النقل عن الامم الاخرى . فان التحليل الجبري ما كاد يقع في أيديهم حتى أخذ كتابهم في الزيادة اليه وتسميته . فان محمداً أبو الوفا الذي عاش خلال العقود الاربعه الاخيره من القرن العاشر الميلادي كتب تعليقات على المؤلفات الرياضية التي خلفها من تقدمه من الكتاب والباحثين وكذلك ترجم كتاب « ذيوفانتس » . وكان آخر عهد للعرب بالتأليف في علم الجبر سنة ١٠٣١ ميلادية — ٤٢٣ هـ . على أنهم تركوا علم الجبر كما خلفه « محمد ابن موسى » وأبو الوفا ، ولم تحدث ترجمه كتاب ذيوفانتس من أثر كبير

يلينهم . وقد جاء في المقتطف : جلد ٢٨ ص ٣٨٥ ما يأتي :

« وقد اشتغل الهنود والعرب بعلم الجبر . غير أنهم لم يضيفوا الى موضوعات اليونان فيه شيئاً يذكروم يستعمونه الا في حل المسائل العددية وبقى عندهم سلكاً متوعراً وهم يعتبرونه حساباً عالياً . »

ولعل السبب في ذلك يرجع الى أن كتاب ذيوفانتس لم ينقل الى العربية الا في عصر كان العقل العربي قد أخذ يتمشى فيه مرة أخرى نحو الفيدييات .

وجاء في المقتطف جلد ٢٨ ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ما يلي :

« واقدم ما انتهى اليه من أمر الجبر مؤلف وضعه ذيوفانتس (Diophante)

المتوفي سنة ٤٠٩ م في ثلاثة عشر كتاباً لدينا منها ستة فقط والسبعة الباقية مفقودة ومباحث الستة الاولى هي في المعادلات البسيطة والسيالة من الدرجة الاولى للمجهولين فقط يتبعها مسائل منشورة مع حلها والمجهول في جميعها دليله واحد . ثم كتاب في المعادلات المفردة من الدرجة الثانية اي ما كان المجهول فيها مربعاً فقط مع حل بعض المسائل من هذا القبيل . ولعل السبعة المفقودة فيها مسائل أكثر صعوبة مما ذكر لان درجة الكتب ترتفع بالتدريج في الستة الموجودة . ولم يسبقه أحد الى استعمال العلامات بل هو أول من نبه اليها فاستخدم الخط القصير علامة للطرح . »

« وفي سنة ٥٠٧ م . نشر (براهما غوبتا) Brahmagupta . الهندي كتاباً في

الحساب والجبر يلحقهما ذيل في الهندسة . وهو كتاب نفيس في بابيه حمل الكثيرين على القول بان علم الجبر كان راقياً درجة سامية بين الهنود قبل (برهما غوبتا) ودعا آخرين الى القول بان هذا الهندي هو واضع علم الجبر دون غيره . ولعله اطلع على كتاب ذيوفانتوس اليوناني . فان كان ذلك فالواضع هو ذيوفانتوس وحده . الا فيكون « برهما غوبتا » قد نازعه الشرف والفخر في وضع هذا الفن . أما كتاب الرياضي الهندي فيشبهه كتاب ذيوفانتوس في كثير من الوجوه ولا يزيد عنه شيئاً وهذا حمل البعض على القول بانه منقول عنه . ويعزز هذا الزعم قصر باع الهنود في سائر

العلوم الرياضية كالمهندسة والهيئة عما لليونان فيه المبلغ الاعلى والخطة المثلى . فلو كان الهنود أهل اكتشاف في الرياضيات لاكتشفوا في الهندسة وهي أقرب لي الحاجة من الجبر . »

« وفي أواخر القرن الثاني عشر نشر بهسكارا Bhascara الهندي كتابا شرح فيه كتابا (برها غوبتا) مع بعض اضافات تناو لها من العرب أو من نفسه وبهذا الشرح عظم امر الجبر الهندي وارتفع شأنه بين الامم فترجم هذا الكتاب الى الانكليزية بصور شتى اذ ترجمه عدد ليس بقليل من الراغبين في نشره . »

« ثم بعد برها غوبتا بزمن طويل أي في الربع الاول من القرن التاسع الميلادي نشر محمد بن موسى الخوارزمي قيم خزانة كتب المأمون كتابا بأمر المأمون في الجبر والمقابلة وهو أول كاتب كتب بالعربية في هذا الفن فهو واضع الاصطلاحات الجبرية وهو الذي اعطاه هذا الاسم العربي الذي نقله الافرنج بلفظه عن عرب الاندلس وعرب المشرق حتى خيل للكثيرين أن العرب هم واضعو الجبر وانه لم يسبقهم اليه أحد . »

« وقد اشتهر هذا الكتاب في الشرق والغرب وطارذ كره في جميع الاصقاع وكثرت شروحه وترجماته الى لغات كثيرة في أزمنة مختلفة وكان هو المعول عليه في هذا الفن مدة طويلة ولايشك الاوروبيون اليوم أن محمد بن موسى أخذ هذا العلم عن الهنود واليونان فهو كان قيم خزانة الكتب في بغداد وله الاستطاعة أن يستنبث ركازها ويقف على محتوياتها . »

« اما ابحاث الكتاب فهي الجمع والطرح والضرب للكميات الحاوية مجهولا واحدا أو جذر المجهول أو مربعه . وطرائق الجمع والطرح موضحة بخطوط يعبر بها عن القيم ، وفيه بعض أمثلة على المعادلة المفردة من الدرجة

الثانية محاولة بعد إيضاحات طويلة مبهمة وفيه باب التجذير والترقية للكليات ذات الحد الواحد.»

«وقام بعده تلميذه «ثابت بن قرة» فالف كتابا بين فيه كيفية استخدام الجبر في الهندسة وجمع بين الاثنين . وكثرت بعدها كتب العرب في هذا الفن . غير أن جميع ما ألف بعدها لم يشرح عما وضعه محمد في كتابه الاول فكلهم نقلوا عنه كما نقل هو عن سبقه من الهنود واليونان»

* * *

وفد ذلك الهندي الذي حمل مقاله السند هند والمقالة الرياضية الى بغداد سنة ١٥٦ هـ . ٧٧٢م وكان من أثرها ما وصفنا . أما كبار فلصي العرب فلم يظهر وا الا بعد ذلك بنصف قرن ونيف . وكان أولهم أبو معشر البغدادي تلميذ الكندي وقد توفي سنة ٢٧٢ من الهجرة ٨٨٥م . وذكر بن خلكان في الجزء الاول من تراجمه ص ١٤٥ (طبع مصر) أن اسمه أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي المنجم ، وأن من تصانيفه كتاب المدخل وكتاب الزيج وكتاب الالوف . أما في العالم اللاتيني فيعرف باسم «أبومازار» Abumazar

ومن بعده محمد بن جابر المتوفى سنة ٣١٧ من الهجرة ٩٢٩م . ويعرف في المؤلفات اللاتينية باسم «البتاغنيوس» Albatagnius لأنه كان يلقب «بالبتاني» نسبة الى بلدة «بتان» في ما بين النهرين . ونقل بن القفطي أن البتاني صائبي من حران ابتداء الرصد سنة ٢٦٤ — ٨٧٧م . الى سنة ٣٠٦ — ٩١٨م . وأمضى ذلك العهد في مدينتي الرقة على الفرات ، وفي انطاكية بسوريا . وله من الكتب زيج المشهور المسمى «زيج الصابي» أصله العربي محفوظ في مكتبة الفاتيكان ، وطبعه في ترجمة لاتينية «أفلاطون تيرتينوس» Plato Tiburtinus في نورمبرج سنة ١٥٣٧ تحت عنوان De Scinetia Stellarum وأعيد طبعه في بولونيا Bologna سنة ١٦٤٥ . ومن بين مؤلفاته التي لم تطبع تعليقات على كتاب

لمجسطى ، وشرح مقالات بطليموس ، ومقالة له في الفلك والجغرافية . وأصلح زيج بطليموس الزمني لأنه لم يكن مضبوطاً ، وزيجه أضبط ما وجد من نوعه عند العرب . وله عدة مستكشفات رياضية وفلكية ظلت العمدة في علم الفلك عهداً طويلاً في القرون الوسطى ، وفي مدارس أوروبا على الأخص . وكان يلقب بطليموس العرب لثبات قدمه في علم الفلك وتضلعه فيه .

وذكر ابن خلكان (مجلد ثامن ص ١١٧ ، ١١٨ طبع مصر) أنه توفي سنة ٣١٧ هـ — ٩٢٩ م عند رجوعه من بغداد بموضع يقال له « قصر الحضرة » ، وقال بأن الزيج نسختان أولى وثانية ، وأن الثانية أضبط وأجود . ولا أعلم أية من النسختين هي المحفوظة في مكتبة الفاتيكان .

وكذلك ذكر ابن خلكان أن له كتاباً اسمه « معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك » ورسالة في مقدار الاتصالات وكتاب شرح أربعة أرباع الفلك ورسالة في تحقيق أقدار الاتصالات ، وأنه شرح أربع مقالات بطليموس . وترجمه ابن خلكان باسم — أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان الحراني الأصل البتاني الحاسب المنجم .

قال ابن العبري — « وفي سنة سبع عشرة وثلاثمائة مات أبو عبد الله محمد ابن جابر بن سنان الحراني المعروف بالبتاني أحد المشهورين برصد الكواكب ، ولا يعلم أحد في الإسلام بلغ مبلغه في تصحيح أرصاد الكواكب وامتحن حركاتها وكان أصله من حران صائباً . »

وجاء في الزيج الصابي الذي طبع حديثاً برومية سنة ١٧٩٩ وكان قد ترجم إلى اللاتينية وطبع بها سنة ١٥٣٧ (من المقدمة العربية) ما يلي :

« إن من أشرف العلوم منزلة علم النجوم لما في ذلك من جسيم الخط وعظيم الانتفاع بمعرفة مدة السنين والشهور والمواعيت وفصول الأزمان وزيادة النهار والليل ونقصانها ومواضع النيرين وكسوفهما وسير الكواكب في استقامتها

ورجوعها وتبدل أشكالها ومراتب أفلاكها وسائر مناسباتها . واني لما أطلت النظر في هذا العلم ووقفت على اختلاف الكتب الموضوعة لحركات النجوم وما تهباً على بعض واضعها من الخلل في مآصلوه فيها من الأعمال وما ابتنوه عليها وما اجتمع أيضاً في حركات النجوم على طول الزمان لما قيست أرصادها الى الأرصاد القديمة وما وجد في ميل فلك البروج على فلك معدل النهار من التقارب وما تغير بتغيره من أصناف الحساب وأقدار أزمان السنين وأوقات الفصول واتصالات النيرين التي يستدل عليها بأزمان الكسوفات وأوقاتها ، أجريت في تصحيح ذلك واحكامه على مذهب بطليموس في الكتاب المعروف بالمجسطى بعد انعام النظر وطول الفكر والروية مقتفياً أثره متبعاً مارسمه إذ كان قد تقصى ذلك من وجوه ودل على العلل والاسباب العارضة فيه بالبرهان الهندسي العددي الذي لا تدفع صحته ولا يشك في حقيقته فأمر بالحنه والاعتبار بعده . وذكراً أنه قد يجوز أن يستدرك عليه في أرصاده على طول الزمان كما استدرك هو على أبرخس (راجع القفطى ص ٥١ و ٥٠ طبع مصر) وغيره من نظرائه . ووضعت في ذلك كتاباً أوضحته فيه ما استعجم ، وفتحت ما استغلق ، وبينت ما أشكل من أصول هذا العلم وشد من فروعه وسهلت به سبيل الهداية لم يأت به ويعمل عليه في صناعة النجوم وصححت فيه حركات الكواكب ومواضعها من منطقة فلك البروج على نحو ما وجدتها بالرصد وحساب الكسوفين وسائر ما يحتاج اليه من الأعمال وأضفت الى ذلك غيره مما يحتاج اليه وجعلت استخراج حركات الكواكب فيه من الجداول لوقت انتصاف النهار من اليوم الذي يحسب فيه بمدينة الرقة وبها كان الرصد والامتحان على تحديق ذلك كله . »

وحقق البتاني ما يلي : (عن المقتطف مجلد ٣٩ ص ١٤٨)

أولاً — أن ميل فلك البروج على فلك معدل النهار هو ٢٣ درجة و ٣٥ دقيقة وكان أبرخس قد حسبه ٢٣ درجة و ٥١ دقيقة ، وهو الآن ٢٣ درجة ونحو

٢٧ دقيقة . وقد حسب علماء الفلك المتأخرون أنه يتغير قليلاً ، وقد كان في زمن
البتاني ٢٣ درجة ونحو ٣٤ دقيقة فأصاب في رصده وحسابه الى حد دقيقة واحدة
ثانياً — أن طول السنة الشمسية ٣٦٥ يوماً و ٥ ساعات و ٤٦ دقيقة و ٢٤
ثانية . وكان أبرخس وبطليموس قد حسبا ٣٦٥ يوماً و ٥ ساعات و ٥٥ دقيقة
و ١٢ ثانية . وهو ٣٦٥ يوماً و ٥ ساعات و ٤٨ دقيقة و ٤٦ ثانية . فأخطأ البتاني بمقدار
دقيقتين و ٢٢ ثانية فقط . وسبب خطئه في اعتماده على رصد بطليموس لا من رصده هو .
ثالثاً — دقق في حساب أهليلجة فلك الشمس . فقال إن بعد الشمس عن مركز
الارض اذا كانت في بعدها الا بعد يساوي ١١٤٦ مرة مثل نصف قطر الارض
واذا كانت في بعدها الاقرب يساوي ١٠٧٠ مرة مثل نصف قطر الارض
واذا كان في متوسط بعدها يساوي ١١٠٨ مرات مثل نصف قطر الارض والنتيجة
التي وصل اليها قريية جداً مما وصل اليه العلماء الآن .

ويحله الاوروييون في الملل الأرفع بين كل علماء الهيئة الذين ظهروا في
كل العصور .

وفي حدود سنة ٨٢٨ للميلاد أمر الخليفة أبو جعفر المأمون بقياس درجة من
الهاجرة لاستقراء جرم الكرة الأرضية وقام بهذا العمل أربعة من علماء الهيئة
مدونة أسماؤهم في صفحات التاريخ .

قال أبو الفدا .

« قد قام بتحقيق حصة الدرجة طائفة من القدماء كبطليموس صاحب
المجسطى وغيره فوجدوا حصة الدرجة الواحدة من العظيمة المتوهمة على الارض
سته وثلاثين ميلاً وثلاثي ميل . ثم قال بتحقيقه طائفة من الحكماء المحدثين في
عهد المأمون وحضروا بأمره في برية سنجار وافترقوا فرقتين بعد أن أخذوا ارتفاع
القطب محروراً في المكان الذي افترقوا منه . وأخذت إحدى الفرقتين في المسير
نحو القطب الشمالي والأخرى نحو القطب الجنوبي وساروا على أشد ما أمكنهم من

الاستقامة حتى ارتفع القطب للسائرين في الشمال وانحط للسائرين في الجنوب درجة واحدة . ثم اجتمعوا عند المفترق وقابلوا على ما وجدوه فكان مع احدها ستة وخمسون ميلا وثلاثمئيل ومع الاخرى ستة وخمسون ميلا بلا كسر فأخذ بالاقبل وهو ستة وخمسون ميلا .»

ولم يذكر أبو الفدا الاعمال واحدا والحقيقة أنهما إعلان وقعا في آن واحد أحدهما في برية سنجار في بلاد ما بين النهرين والآخر الى الشمال من بلد الشام بين تدمر والفرات . وقد أثبتهما ابن يونس وهو من أشهر الذين نبغوا في علم الهيئة في الخلافة العباسية توفي سنة ٣٩٩ هـ - ١٠٠٨ م .

وقال سناد بن علي :

« أمرني المأمون أن أحقق وخالد بن عبد الملك درجة في الدائرة العظيمة على سطح الأرض فذهبنا لذلك وسار على بن عيسى الاضطرابي وعلى بن البحترى من طريق أخرى . أما نحن فتوجهنا الى أن وصلنا بين فاميسة وتدمر فوجدنا الدرجة ٥٧ ميلا ووجدناها كذلك على بن عيسى وعلى بن البحترى وبعثنا بالخبر فوصل في آن واحد .»

وذكر ابن يونس رواية احمد بن عبد الله الملقب بمجيش في كتابه « مطالع الأرصاء » . وحاصلها أن العلماء ساروا في برية سنجار وقاسوا الدرجة فوجدوا أنها ستة وخمسين ميلا وربع ميل من أميالهم . «
أما الطرق المتبعة الآن في قياس الدرجة فمعاها حساب الثلثات وهو حساب دقيق جدا (راجع المقتطف م ٢٨ ص ٤٤٠ و ٤٤١) .

*
*
*

وبعد أن أسس الخليفة المنصور العباسي مدينة بغداد سنة ١٤٨ بعد الهجرة (٧٦٥ م) استقدم الطبيب النسطوري « جورجيس بن بختيشوع » من مدرسة جنديسابور وعينه طبيباً ملكياً . ومنذ ذلك الحين توارث الأطباء

النسطوريون وظيفة التطبيب في قصور خلفاء زماناً ، وأسسوا مدرسة طبية في بغداد .

ولما مرض « جورجيس » في بغداد وأذن له الخليفة بالرجوع الى جنديسابور عين مكانه تلميذه « عيسى بن صهاربخت » وقد ألف كتابا في فن الادوية — الاقرباذين — غير أن القفطي صاحب كتاب « أخبار الحكماء » يقول — « لما طب المنصور جورجيس بعد رجوعه الى جنديسابور مريضا وعوفى ، وجد عند الطالب ضعيفا من سقطة سقطها من سطح داره فاتتذر عن ذلك وتقدم الى عيسى هذا بالمضى الى المنصور فامتنع ، فسير عوضه ابراهيم تلميذه وبقي عيسى هذا في البيارستان بجنديسابور مقيا » . غير أن أكثر المؤرخين على الضد من رواية القفطي يثبتون أن عيسى قدم بغداد وطب بها .

وقدم من بعد ذلك الى بغداد (نختيشوع) بن (جورجيس) وكان طبيبا للخليفة هارون الرشيد سنة ١٧١هـ (٧٨٧م) . ومن بعد قدم ابنه جبرائيل ، فارسلي يقوم على تطبيب جعفر البرمكي ، وزير هارون الرشيد . وكتب جبرائيل مدخلا لعلم المنطق ورسالة للمأمون في التغذية والمشاريب ، وملخصا في الطب أخذ عن ديوسقوروس Dioscorus وجالينوس وبولص الاجانيطي ، وكتب في وصايا طبية كثيرة ، ورسالة في الروائح ، وغير ذلك . ومن المعروف أن الطب الهندي كان أول ما أدخل في مدرسة جنديسابور ، ومن ثم امتزج بالطب اليوناني . ولكن اليوناني تغلب أخيرا .

ومن الذين اشتهروا من الاطباء في بغداد « يحيى بن ماسرجس » أو ماسرجويه John bar Maserjoye وقد رأس مدرسة الطب في بغداد زمانا . وله ترجمات كثيرة ومؤلفات . ويقول الاستاذ « أوليري » ، انه مترجم كتاب « سنتاغما » ، Syntagma الى اللغة السريانية .

وظل الطب عند العرب واقفا عند حد النقل والترجمة تأليفا ، وعند تجارب مدرسة الاسكندرية عمليا . ولقد أشرنا من قبل الى تلك الاساطير التي تخالطت

بالطب والكيمياء في مصر بمدرسة الاسكندرية . فان هذه الاساطير قد ظلت مؤثرة أثرها المحتوم في العرب طوال أيام مدينتهم . وكان هذا الامر سبباً في أن العقل العربي لم يثب الى الابتكار في علم الطب مبكراً ، شأنه في كثير من ضروب المعارف التي زاوها . فان الابتكار في الطب لم يأت إلا في عصور متأخرة من المدنية العربية .

وفي أواخر القرن الثالث الهجري نفع على ابي العباس احمد بن الطيب السرخسي . وكان تلميذاً للكندي ، ويقال انه كتب مقالة في الروح ، ومختصراً لايساغوجي ، والمدخل الى صناعة الطب (راجع المسعودي جزء ٢ ص ٧٢ طبع ليدرج) وحتى عصر السرخسي كانت المباحث الطبية محصورة في يد المسيحيين واليهود غالباً . حتى انك لتجد مؤلفاً يقال يوحنا أو يحيى بن سيرايمون —

John bar Serapion ولم أقف على كنيته العربية — في أواخر القرن التاسع الميلادي ، يكتب في الطب باللغة السريانية مختصرات ترجم احدها عدة ترجمات ، وطبعها من بعد ذلك في اللاتينية « جيرار الكريمني » Gerard of Cremonia

ويعتبر أبو بكر محمد بن زكريا الرازي أبا الطب العربي ، توفي سنة ٣١١ أو ٣٢٠ هـ . (٩٢٣ أو ٩٣٢ م) ويلقبه كتاب اللاتينية « بالرازي » Rhazes وكان مؤلفاً موسيقياً ، كما كتب في الفلسفة والادب والطب . وغالب ما يشير في مؤلفاته الطبية الى نقاة من كتاب الهند واليونان .

ولا مشاحة في أن ادخال العنصر اليوناني الصرف في المؤلفات الطبية والاستعاضة به عما كتب أطباء مدرسة الاسكندرية نقلاً عن القدماء ، كان أعظم ما قام به مؤلفو العرب لصناعة الطب من الخدمات . على أن مؤلفات « الرازي » قد سادت فيها الفوضى ووصفت بضعف التأليف . فهي ليست سوى مجموعة من المقالات مفككة العرى غير متواصلة الحلقات . ولهذا السبب وحده رجح طلاب الطب عن مؤلفاته الى ما كتب ابن سينا لان مؤلفات ابن سينا فيها من الالفة

والنظام بقدر ما في مؤلفات «الرازي» من التفكك وعدم التواصل .
 ولقد تلقى «الرازي» العلم بعد أن كبر. ولما نبغ تولى رئاسة الاطباء في بهارستان
 بغداد. ومن الامثال التي كانت جارية على الالسنه وتدل على منزلة الرازي قوطهم
 « كان الطب معدوما فاحياه جالينوس ، وكان متفرقا فجمعه الرازي ، وكان ناقصا
 فكماله ابن سينا » . وهذا المثل يدل واضح الدلالة على أن مؤلفات «الرازي»
 خليقة بما وصفناها به من قبل .

واشتغل الرازي بالكيمياء واستكشف ماسماه «زيت الزاج» وهو الحامض
 «الكبريتيك» ، والكحول. استحضر الاول باستقطار كبريتات الحديد واسمها في
 العربية « الزاج الاخضر» ، فلما استقطره خرج منه سائل اسماه «زيت الزاج» .
 ولا تزال الطريقة التي اتبعها الرازي في استخراج ذلك الحامض متبعة في
 استخراجه حتى الوم . وأما الكحول فقد استحضره باستقطار مواد نشوية وسكرية
 مختمرة .

وألف في استخراج الذهب من المعادن الاخرى مؤلفا كان لا يعتقد أنه حق وعلم صحيح
 ولكن الراجح أنه ما ألف فيه الا ابتغاء الرزق والمال ليستعين به على تجاربه
 الكيماوية . والف كتباً كثيرة لم يبق منها إلا القليل . ويقال انها كانت مائتي
 مؤلف . والباقي منها كتاب « الحاوي » وهو أهمها ، كتبه في الامراض ووصفها
 ومداواتها. وكتاب «الطب المنصوري» ، وكتاب « الجدرى والحصبه » وكتاب
 «الفصول في الطب» وكتاب «الكافي» ، وقد ترجم الى العبرية وهو موجود الآن
 في جامعة ا كسفورد ، وكتاب « براء الصناعة» وكتاب «الطب الملوكي» .

وكان الخليفة المنصور أكبر مشجع للاطباء النسطوريين على أن يسكنوا
 بغداد ويعلموا فيها . وكان له ضلع كبير في ترجمة الكتب العلمية والفلسفية عن
 اللغات اليونانية والسريانية والفارسية. غير أن اهتمام الخليفة المأمون بهذا الامر كان
 أكبر ، وحمانيته للعلماء والحكماء أثبت وأكثر تشجيعاً .

أسس المأمون الخليفة العباسي مدرسة بغداد سنة ٢١٧ هـ . (٨٣٢ م) على نسق المدارس النسطورية والزرادشتية التي كانت مؤنسة من قبل ذلك . وسمي تلك المدرسة « بيت الحكمة » ووضعها تحت عناية « يحيى بن ماسويه » (١) John bar Maswai الذي توفي سنة ٢٤٣ هـ . (٨٥٧ م) وقد مر بنا ذكره . وهو من المؤلفين في السريانية والعربية . أما مقالته في الحيات فقد كانت العمدة في دراسة ذلك المرض زماناً طويلاً . وتقلت من بعد إلى اللاتينية والعبرية .

أما أكبر الأعمال التي قام بها بيت الحكمة شأناً فترجع إلى المجهودات التي بذلها تلاميذ يحيى وتابعوه وعلى الأخص « أبو زيد حنين بن اسحاق العبادي » . المتوفى سنة ٢٦٣ هـ (٨٧٦ م) وهو ذلك الطبيب النسطوري الذي مر ذكره في تاريخ النقل عن اليونانية إلى السريانية . فقد نقل فضلاً عن المؤلفات الطبية جزء من منطق أرسطوطاليس « الأورغانون » . وبعد أن درس أبو زيد في بغداد رحل إلى الاسكندرية وعاد منها مزوداً بكل ثمار الدرس التي كانت شائعة متقناً للغة اليونانية التي استخدمها فيما بعد أداة للنقل إلى السريانية والعربية .

واجتمع معه في « بيت الحكمة » ابنه اسحق وابن أخته حبيش الأعمش الدمشقي . وترجم حنين إلى العربية مقالات إقليدس Euclid وبضعة مؤلفات عن جالينوس وأبقراط وأرخميدس Archimides وأبولونيوس البرغوسى Apollonius of Pergaeus وهو أكبر الذين اشتغلوا بالهندسة في العالم اليوناني بعد أرخميدس . ولد في الغالب سنة ٢٥٠ ق . م . ومات في حكم بطليموس فيلوپاتر Ptolemy Philopater فكانه عاش بعد أرخميدس بأربعين عاماً تقريباً . وكتب كثيراً ، غير أن كل ما كتبه في اليونانية فقد تباهه ، ولم يبق الا ما ترجم

(١) يلاحظ أن اسم John يترجم حيناً باسم يوحنا وحيناً باسم يحيى . كذلك فعل العرب وأكثـر المترجمين — فقد يقال مثلاً يوحنا النحوي في كتاب وفي كتاب وفي آخر يحيى .

العرب عنه . وكذلك ترجم أبو زيد عن غيره هؤلاء ، كما ترجم الجمهورية *The Republic* وكتاب تباوس *Timaeus* لأفلاطون وقاطيغوريوس ، والفوسيقا ، والماغناموراليا *Magna Moralia* أي الاخلاق الكبير عن أرسطوطاليس ، وتعليقات تيمستيروس *Themistius* على المقالة الثلاثين من الميتافيزيقا ، وترجمة كاملة للانجيل الى اللغة العربية . ولم يقتصر على هذا بل ترجم أيضاً كتاب أرسطوطاليس في المعادن وهو كتاب ظل زمانا طويلا مرجعاً من أهم المراجع في دراسة الكيمياء . وعن أصله اليوناني أخذ بولس الاجانيطي .

أما ابنه اسحاق ففضلا عما نقل في الطب ، فقد ترجم الى العربية تراجم أخرى منها « السوفسطائي » *The Sophist* لأفلاطون ، والميتافيزيقا والروح (ده أنيا) *de Anima* والكون والفساد *Degeneratione et de Corruptione* وإرمانوظيقا أو « باري أرمنياس » أي العبارة لأرسطوطاليس ، وهذه المقالة ترجمها أبوه حنين الى السريانية ، ثم تعليقات على « فرفوروس » والاسكندر الإفروديسي وأمونئوس *Ammonius* .

وبعد ذلك بقليل ظهر في أفق التأليف « قسطا بن لوقا » *Questa ben Loqa* البعلبكي ، وقد درس في بلاد اليونان وترجم كثيراً . ومن أشهر ما كتب كتاب « الفلاحة اليونانية » نقله عن السريانية ، وقد طبع بمصر سنة ١٢٩٣ هـ . وتوفي ابن لوقا سنة ٣١١ هـ . — ٩٢٣ م .

وكان القرن الرابع الهجري في الحقيقة العصر الذهبي في تاريخ الترجمة والنقل عند العرب . أما ذلك العمل العظيم الذي تم في ذلك العهد ، فإن كان في واقع الأمر راجع الى فئة من المسيحيين الذين كانوا يتكلمون السريانية وانحدروا الامثال التي درسوها في لغتهم ، الا أن عددا عظيما من الترجمات قد نقلت اذ ذاك عن اليونانية مباشرة ، نقلها مترجمون درسوا تلك اللغة في الاسكندرية أو في انغريقية . وغالب ما كان المترجم منهم قادرا على أن ينقل عن اليونانية الى العربية

والسريانية معاً . وكان هناك مترجمون عن السريانية ، غير أنهم كانوا يعتبرون في المنزلة الثانية بعد المترجمين عن اليونانية .

من بين المترجمين النساطرة الذين نقلوا عن السريانية نذكر « أبو بشر متى بن يونس » المتوفي سنة ٣٢٨ هـ . (٩٣٩ م) وقد ترجم الى العربية أناليطيقا الثانية Analytica Posteriora والبويطيقا لارسطوطاليس وتعليقات الاسكندر الافروديسي على كتاب الكون والفساد لارسطوطاليس ، وتعليقات « تيمستوس » على الكتاب الثلاثين من الميتافيزيقا . وكل هذه الكتب نقلها عن السريانية . وله مؤلفات مبتكرة في التعليق على قاطيفورياس أى المقولات لارسطوطاليس والايساغوجي لفرفوروس .

ومن الثابت في تاريخ هذه النهضة الكبيرة أن مترجمي اليعقوبيين يأتون بعد النساطرة . وكان من بين الذين نقلوا منهم عن السريانية الى العربية « يحيى بن عدى » المتوفي سنة ٣٦٤ هـ . — ٩٧٤ م . وكان تلميذا لحنين بن اسحاق ، وقد راجع كثيرا من الترجمات التي تقدم عليه بها المترجمون وأصلح نقصها وأضاف اليها ما استقامت به معانيها . وترجم عن أرسطوطاليس كتاب قاطيفورياس والسوفسطيقا والبولييطيقا والميتافيزيقا ، وعن أفلاطون القوانين وتياوس ، وعن الاسكندر الافروديسي تعليقاته على قاطيفورياس — المقولات — وعن « ثيوفراسط » Theophrastus الذي علم بعد أرسطوطاليس في اللوقيون ، كتاب الاخلاق . وكذلك ترجم « أبو علي عيسى بن زاره » عن أرسطوطاليس كتاب قاطيفورياس ، والتسارخ الطبيعى وكتاب الحيوانات Animalia مع تعليقات يوحنا فيلوبونس .

أما وقد بلغنا هذا المبلغ من البحث فليس ثمة من حائل بحول دون الكلام فيما وقف عليه العرب من مؤلفات أرسطوطاليس .

كان « الاورغانون » أى المنطق لارسطوطاليس ، من أوليات ما عرف

العرب عن المعلم الاول. وقد عرفوا معه كتاب اريطوريقا (الخطابة) والبويطيقا (الشعر) مع كتاب ايساغوجي لفرفور يوس .

أما مؤلفات أرسطوطاليس في العلم الطبيعي فقد عرفوا منها الفوسيقا وكتاب الكون الفساد وتاريخ الحيوانات الطبيعي *Historia animalium* وكتاب الروح *de Anima* . أما كتاب المتيورلوجيا — الآثار العلوية — الذي عرفه العرب ، فظاهر الاتتحال ، وليس لارسطوطاليس . وعرفوا عنه من العلوم الادبية الميتافيزيقا وعلم الاخلاق الى نيقوماخس *Nicomachean Ethics* وعلم الاخلاق الكبير . على أن هنالك شكاً كبيراً في أنهم عرفوا الاخلاق الى نيقوماخس .

ومن غريب الامر أن سياسة أرسطوطاليس لم يعرفها العرب ولم يعنوا بها ، واستعاضوا عنها بقوانين الجمهورية لافلاطون .

ويرجح أن هذا هو السبب المباشر في أن نظم الحكومات ظلت عند العرب غارقة في طيات النظر الغيبي وأعاتهم على ذلك ادماج الحكومة في الدين والخلط بين السلطتين الدينية والدنيوية وعدم التفريق بين سلطات التشريع والت قضاء والادارة .

وقد نسب العرب الى أرسطوطاليس كتاباً في المعادن وآخر في الميكانيكا لا يعرف الباحثون في العصور الحديثة عنهما شيئاً . وليس ذلك بكاف في اثبات أنهما لغيره . ولكن الدليل الذي يرجح أنهما لغيره أن أرسطوطاليس لم يشر الى هذين السكتابين في بقية كتبه التي استكشفت أصلها اليوناني في أوائل القرن التاسع عشر .

وظل « الاورغانون » قاعدة التعاليم الانسانية عندهم ، ومشى جنباً لجنب مع علومهم الاصلية ، كالنحو والفقهاء . والظاهر أن ذلك أمر طبيعي الوقوع في كفاءة آت العقل الانساني . أمر طبيعي أن يألف المنطق وعلوم الكلام . فان

هذه الظاهرة ان كانت قد وجدت متسما في العقل السامى فى آسيا ، فان آثارها ظهرت فى أوروبا لدى انتشار الفلسفة المدرسية فى العالم اللاتينى ، قبل أن يكون لزعماء هذه الفلسفة أى احتكاك بالعرب . فكان العقل اللاتينى والعقل التيوتونى ، الآريين ، لم يعدوا القاعدة التى جرى عليها العقل السامى .

ظل منطق أرسطوطاليس علماً ثابتاً أصيلاً فى كل البلاد التى عرفته ، وبين كل الأمم التى احتكت بالفلسفة اليونانية . رحبت به العقول أينما حل ولم تنفر منه الطبائع . لذلك نجد أن كل المناقشات الفلسفية واللاهوتية التى تقع عليها فى كتب العرب ليست سوى مسائل مستمدة أصولها من الميتافيزيقا والبسيكولوجيا ولهذا تجدها جميعاً ذات أصرة متميزة بالكتاب الثانى عشر من الميتافيزيقا ، والكتاب الثالث من رسالة الروح de Anima .

عرفنا من قبل أن البسيكولوجيا لأرسطوطاليس لم تفسر عند العرب إلا بالاستعانة بما كتب فيها الاسكندر الافروديسى من التعليقات . وبذلك اصطبغت بصبغة من الالهية وما بعد الطبيعة (الغيبيات) أكتامها من بعد المدرسة « الافلاطونية الجديدة » وتعاليمها المستمدة من كتاب « ايشولوجيا » للشيخ أفلوطين الاسكندرى ، على الاخص ، وهو كتاب فى القول بالالهية نسب خطأ الى أرسطوطاليس ، وكان سبباً فى أن يعنت المعلم الثانى ، أبو نصر الفارابى نفسه فى سبيل التوفيق بين أفلاطون وأرسطوطاليس . ولم تدع الأفكار الخاصة بالقول بالالهية فى « الافلاطونية الجديدة » ، بين العرب إلا بعد أن ترجم كتاب « ايشولوجيا » المنسوب الى أرسطوطاليس الى العربية سنة ٥٢٢٦ هـ . — ٨٤٠ م .

والحقيقة التى تثبت من البحوث الحديثة أن كتاب « ايشولوجيا » ليس سوى تلخيص لثلاثة الفصول الاخيرة من كتاب يسمى « إنياديس » Enneads

أى «التاسوعات» (١) وضعه الفيلسوف افلوطين الاسكندري Plotinus فنقلها «بن ناعمة» Naymah الى السريانية ونشرها بين الناس في صورة كتاب مستقل منسوب الى ارسطوطاليس .

قد يؤخذ على هذا المترجم أنه لم يكن أميناً في النقل، وأنه اظلم مفاوز العلم وأضل العلماء. غير أننا لانسى أن اسم افلاطون وافلوطين متقاربان في اللغة العربية كما هما في اللغة اللاتينية، وربما كانا متقاربان في اللغة السريانية أيضاً. فلا يبعد أن يكون «بن ناعمة» قد تأثر بالرأى الذى شاع في مدرسة الاسكندرية من القول بان فلسفة ارسطوطاليس وفلسفة شيخه افلاطون، غير مختلفتين في الجوهر، وان التوفيق بينها مستطاع. وتلك فكرة ورثها العرب، ومضوا عليها عا كفين .

ولما ذاع كتاب «إثنولوجيا» اقترن درسه بدراسة تعاليم الاسكندر الافروديسى، وكلاهما يشرح أصول المذهب الافلاطونى الجديد، فكان لذلك أثر ظهر بارزاً في ما كتب العرب من كتب الفلسفة الاسلامية في سائر فروعها

كلاهما أما بين يدي الفلاسفة، والذين هم جديرون بحق أن يسموا فلاسفة، فقد ظهر بين العرب فيما كتبوا ضرباً من الافلاطونية الجديدة مصبوغاً بالصبغة الاسلامية، تشكل في آخر حالاته بما كتب الرئيس ابن سينا، والفيلسوف ابن رشد. ونقل على هذه الصورة الى الفلسفة المدرسية في العالم اللاتينى في أوروبا، فكان أثره بين اللاتين لا يقل عن أثره بين العرب. ولما استشم هذا المذهب ريح الفكر الغيبي اقلب الى «باطنية» قاسية الاحكام ظهرت تحت عنوان «التصوف» عند العرب، وكانت سبباً في ذلك الضرب من «اللاهوت التأملى» الذى نمته الباطنية وشربته بروحها الخيالية. وكثيراً ما تخالطت الفكرات الشائعة في ذلك المذهب باللاهوت الاسلامى الصحيح، وظهرت ممزوجة به أو ممزوجة بها، مزجاً يظهر جلياً في سطور

(١) يروى أن كتب افلوطين جعلها تلميذه فرفورديوس الصورى في ستة مجلدات وكل مجلد يحوى تسعة كتب وانه اسماها التاسوعات Enneads فكان اسم الكتاب من وضع فرفورديوس لا من وضع افلوطين، وان الاسم صرف على مجموعة اعماله الفلسفية

المؤلفات التي تناولت تلك الابحاث.

أما التعاليم الاولى لتلك « الافلاطونية الجديدة » كما تحزرت في اللاهوت الاسلامي ، فتنحصر أولا في الاعتقاد بالعقل الايجابي — ويسمونه «العقل الفعال» الذي كان الاسكندر الافروديسي أول من قال به، على أنه فيض من فيوض الله. ثم العقل السلبي — ويسمونه العقل المستقل — ويختص به الانسان وحده، ولا ينشط هذا إلا بقوة يبعثها فيه العقل الفعال. وما هذا المذهب في مبناه وتفصيله إلا مذهب الافروديسي إذ يقول — «ان غرض الانسان من الحياة ينحصر في أن يصل بين عقله الهيولاني والعقل الفعال بوحدة متينة». غير أن طريقة هذا الاتصال تختلف عند الفلاسفة وعند الباطنيين .

* * *

يأتي بعد الفلسفة علم الطب. وهو من أكبر ماورث العرب عن اليونان. غير أن هذا العلم، وقد استمد من مدرسة الاسكندرية ومن بيئتها، لم يظهر بين العرب إلا مسما بتعاليم المدرسة المصرية المتأخرة، فظهرت تعاليم جالينوس وابقراط ممزوجة بضروب من السحر والطلسمات والتنجيم، فظلت هذه العوامل شديدة الاثر في أكثر ما خرج في الطب من المؤلفات العربية. أما الاثر الحقيقي في الطب فقد نقل عن اليونان، وقد استمد أولا من كتب النساطرة في الفلسفة، ثم من بعد ذلك عما كتب النساطرة والزرادشتيون في مدرسة جنديسابور.

بعد ذلك يدخل الاثر الحراني في الطب عند العرب. وكانت مدرسة حران الوثنية ذات صلة وأصرة بالافلاطونية الجديدة أيضا. ولما مر المنصور الخليفة العباسي بخران على رأس جيشه ليحارب امير اطور بيزنطية، أبدى عجبه من زى تزييي به بعض الذين قدموا من حران ليؤدوا فروض التحية والولاء، فأرآهم مهذلي الشعر، يرتدون ملابس ضيقة تلاصق أجسامهم. ولما وقف على أمرهم وانهم ليسوا نصارى ولا زرادشتيين ولا يهود ولا من أهل الكتاب، علم أنه استكشف مستعمرة وثنية في

ملكه الاسلامي، فاصروهم أن يعتنقوا ديناً من الاديان ذوات الكتب قبل أن يعود
من الحزب وإلا فانه يكون في حل اذا حكم السيف رقابهم. فاعتنق بعضهم الاسلام
وبعضهم الدين النصراني أو الزرادشتي، وظل بعضهم أميناً لعقيدته الوثنية. غير أن
هؤلاء ظلوا في حيرة من أمرهم حتى أدركهم مدره عربي أعطوه مالا تلقاء ما ينصح
لهم به من سبيل يخلصون به من سيف الخليفة. فنصح لهم بان ينقلبوا صابئين،
وهم من أهل الكتاب بنص القرآن. على أن الخليفة لم يمر بجران في عودته، ولكن
ظل الحرايون الذين انتحلوا الصابئية آمنين بذلك النعت الجديد، في حين أن
الذين اعتنقوا الاسلام أو المسيحية أو الزرادشتية، ارتدوا الى دينهم تحت عنوان
الصابئية.

كان « ثابت بن قره » أعظم من عرف في مدرسة حران في العالم العربي. توفي
سنة ٢٨٩هـ. وكان يجيد اللغة اليونانية، كما يجيد السريانية والعبرية، وترجم في المنطق
والرياضيات والتنجيم والطب، وكذلك في طقوس الوثنيين وتعاليمهم التي ظل أميناً
عليها ثابت العهد لها. وهو أبو الحسن ثابت بن قره بن هرون (ويقال زهرون) بن ثابت
ابن كرايين ابراهيم بن كرايين مارينوس بن مالا ميروس الحاسب الحكيم الحراني.

« وكان في مبدأ أمره صيرفياً بجران ثم انتقل الى بغداد واشتغل بعلوم الاوائل
فهر فيها، وبرع في علم الطب، وكان الغالب عليه الفلسفة. وله تأليف كثيرة في فنون
العلم مقدار عشرين تأليفاً، وأخذ كتاب اقليدس الذي عربه حنين بن اسحاق
العبادي فهدبه ونقحه وأوضح ما كان مستعجباً. وكان من أعيان عصره في الفضائل.
وخرج من حران لخلاف بينه وبين أهل مذهبهم فنزل الى كفر توشاء قرية كبيرة بالجزيرة
الفراتية، أقام بها مدة، الى أن قدم محمد بن موسى من بلاد الروم راجعاً الى بغداد
فاجتمع به فراه فاضلاً فصيحاً فاستصحبه الى بغداد وانزله في داره ووصله بالخليفة
فادخله في جملة المنجمين فسكن بغداد وأولد الاولاد. » (راجع ابن خلدون كان مجلد
أول ص ١٢٤ و ١٢٥ طبعة أميرية)

ولقد توارث ال قررة العلم . فكان منهم ابنه أبو سعيد سنان ، ومن أحفاده إبراهيم ثابت وأبو الحسن ثابت واسحق أبو الفرج ، وكل هؤلاء نبغوا في الرياضيات والفلك .

وكان أبو الحسن ثابت بن سنان ثابت بن قررة ببغداد في أيام معز الدولة بن بويه ، وقرأ عليه كتب بقراط وجالينوس ، وقد سلك مسلك جده ثابت في نظره في الطب والفلسفة والهندسة وجميع الصناعات الرياضية للقدماء . (راجع ابن خلكان جزء أول ص ١٢٥ طبعة مصر الاميرية)



أما ما كان يسمونه الفلاحة فقد نقل احمد بن علي بن قيس الكلداني المعروف بابن وحشية الذي عاش سنة ٢٩١ هـ كتاب الفلاحة النبطية عن الكلدانية أملاه علي بن محمد بن الزيات سنة ٣١٨ هـ . وجعله خمسة أجزاء ومنه نسخ خطية في برلين وليدن واكسفورد والمتحف البريطاني وباريس ودار الكتب المصرية . ومن الفلاحة أيضا كتاب للزيتوني يقال له «مختصر الفلاحة» عن كتاب ابن وحشية .

وقد تقدم أن لقسطا بن لوقا الطبيب النصراني كتاب «الفلاحة اليونانية» نقله عن السريانية . أما كتاب ابن وحشية هذا فنرجع فيه الى الاستاذ نلليانو . والظاهر أن لمعتقد العرب في حركة إقبال الافلاك وإدبارها سببان : الاول ما ورثوه عن مدرسة الاسكندرية من النزعة الى التنجيم والباطنية . وما ورثوه عن هذه المدرسة أيضاً في فكرة أن الافلاك ذوات عاقلة .

ولقد يقال خطأ بأن العرب ورثوا هذه الفكرة أو الصناعة ، صناعة اقبال الافلاك وإدبارها ، عن الكلدانيين ، لأنهم ترجموا كتاب تنكاوشا البابلي الى اللغة العربية . غير أن الاستاذ نلليانو قد نفى هذه الفكرة وأثبت أن كتاب تنكاوشا مختلق اختلاقاً . ولذا ننقل ما قاله في ذلك عن محاضراته التي ألقاها بالجامعة المصرية

وطبعت في كتاب تحت عنوان « علم الفلك عند العرب » — اثباتاً لرأينا
الاول : واثباتاً لفكرتنا في أن اختلاق هذا الكتاب دليل على أن العرب قد
قويت فيهم هذه النزعة من طريق مدرسة الاسكندرية ، لا من طريق غيرها :
قال الاستاذ : حرفياً :

« تحفظ في أوروبا نسختان (١) من كتاب يخال المطلع عليه أول بدء أنه
ترجمة تأليف تنكلوس الى العربية . واسم الكتاب في نسخة مدينة ليون —
كتاب تنكلوشا البابل القوقاني (٢) في صور درج الفلك وما تدل عليه من أحوال
المولودين بها . نقله من اللغة النبطية الى العربية أبو بكر بن احمد بن وحشية (٣)
أملاد علي بن أبي طالب احمد بن الحسين بن علي بن احمد بن محمد بن عبد الملك
الزيات ، وفي نسخة مدينة بطرسبورغ : « كتاب تنكلوشا (كذا) القوقاني من
أهل بابل في صور درج الفلك وبعض دلائلها على ما أخذ عن القدماء » . وغاية
الكتاب وصف الصور العجيبة التي يتوهم المؤلف أن تطلع مع كل درجة من
درج البروج الثلاثمائة والستين ثم ذكر صفات وأخلاق من كان طالع مولده
الدرجة المذكورة (٥) وقال مثلاً ان الدرجة الثلاثين من الميزان —

Catalogus codicum orientatum Bibliothecae Acadcmiae (١)
Lugduno Batavae, Lugdumi Batavorum 1851—1877, t III, P.81, nr.
1047—V: Rosen, Les manuscrits arabes M L'institut des langues
Orientales, St. Petersburg 1877, nr 191 20.

والعلي نسخة ثالثة مصونة بالمسكبة اللورنتيانية (Biblioteca Laurenziana) في فيرنسي
(Eirenze) في مدن ايطاليا

(٢) والصحيح القوقاني نسبة الى قوقان وهي الآن قرية تسمى عقرقوف في بلاد ما بين
النهرين عن عربي بغداد. اطلب تولدكه (Noldeke) ص ٤٤٩ عن مقاله الآتي ذكرها
عن قريب .

(٣) كذا في النسخة والصواب : (ابو بكر احمد)

(٤) كذا في النسخة والصواب : (علي أبي طالب)

(٥) مثال ذلك يكون عالماً فيلسوفاً يجمع الكتب ويكثر النظر فيها ويتعلم أكثر العلوم
ويحتوي على ما يريد الاحتواء عليه ويبلغ مطلبه ومقاصده أو أكثرها .

« يطلع فيها زحل في صورته المظلمى التي لا يطيق أحد أن ينظر اليه ولا أن يدنو منه على مسيرة الف سنة من شدة البرد والكرزاز وهو جالس على رفرف من ديباج وقد جعل أحد رجليه على نخد الآخر، وعلى رأسه تاج من الزمرد الأخضر وفي يده اليمنى طوق من حجارة الشبج فيه صرآة كبيرة محلاة وهي تلمع وتبرق ولحيته كبيرة بيضاء مثل الثلج وفي رجله خفا ديباج اسود جلد السواد وهو مشتمل بكساء خزاً اخضر اسود شديد السواد وهو ساقط مطرق» (١) وقال ان الدرجة السادسة عشرة من برج العقرب « يطلع فيها لوح ذهب مدفون حواليه فصوص زمرد اخضر ورجل شيخ جالس في حجره مصحف يقرأ فيه أخبار قياما الملك وأقاصيصه» (٢). وعلى قوله في الدرجة التاسعة من برج القوس « يطلع فيها عقويا الحكيم في صورته إذ كان شابا جميلا وقد أخذ بيده جارية حسناء وهو يتحدثها بحديث صفار لا يفهمه أحد ويضحك اليها وعن يمينها الصن المقبر الذي حمل فيه رأس رينخانا الملك الى عمه فلما رآه مات فبقى الصن بموضعه سنة لا يمسه أحد ولا ينظر اليه والباب دونه مغلق الى أن جاءهم رسول ملك الفرس فدخل البيت وحرق الصن والرأس فيه» (٣) — وجميع الكتاب خرافات مثل هذه يحكيها الدرجة درجة من فلك البروج . فاذا قابلناها على ما وصل اليها من تأليف توكرس أو تنكلوس الحقيقي وجدنا بين الكتابين فرقا عظيما بل بونا شاسعا . ويركن تنكلوشا القوفاني (أو بالحري ابن وحشية أو أبو طالب الزيات حسبما سأبين) الى حكماء أهل بابل الاوائل ودعاهم بانماء غريبة مختلفة اختلافا واضحا مثل أرميسا وبرهانيا الخسرواني وغيرها فلا ريب في أن هذا الكتاب هو المذكور في الفلاحة النبطية لابي احمد بن علي بن المختار المعروف بابن وحشية النبطي (٤)

Chwolson P. 463 "135,, N. 289 ٢ Chwolson P. 463 "135,, N. 200. ١

Chwolson P.455 "137,, N. 294. ٣

(٤) النبط أو النبط في اصطلاح العرب في القرون الاولى للهجرة اسم أهل الحضرة المتكلمين باللغات الآرامية الساكنين في الشام خصوصا في بلاد ما بين النهرين . فليسوا النبطاً والانباط الذين اتسمت مملكتهم في أرض الحجاز الشمالية الى حدود دليستين ونواحي دمشق وصارت سيفة ١٠٥ م ولاهية من ولايات الرومان .

«ويشترني ذلك الى وصف كتاب الفلاحة النبطية (١) ولو بغاية الاختصار. قال صاحبه في مقدمته ان الكتاب الاصلى ألفه قبله بالوف سنين حكيم بابلي اسمه قوثامى نقلا عن كتب أقدم من تأليفه بكثير وضعها ضغريث و يفيوشاد وان ابن وحشية ترجمه من لسان الكسدانيين أو النبطية (والمراد اللغة البابلية القديمة) الى العربية سنة ٥٢٩١هـ - ٩٠٤م. (٢) وأملاه سنة ٣١٨هـ - ٩٣٠م. على تلميذه أبي طالب احمد بن الحسين بن علي بن احمد الزيات. فمغترأ بهذا الكلام وبما وجد في الكتاب من الامور والاسماء الغريبة زعم خولسن (٣) أنه من آثار بابل الثمينة النفيسة ضاعت لولا ابن وحشية وابوطالب الزيات، فاستنبط من ذلك الاستنباطات البعيدة. وتعلموا أن الفلاحة النبطية تتعلق بالعلوم السحرية أكثر منها بالطبيعات والنبات فقال ابن خلدون (٤) « وترجم من كتب اليونانيين (كذا) كتاب الفلاحة النبطية منسوبة لعلماء النبط مشتملة من ذلك (٥) على علم كبير. ولما نظر أهل الملة (٦) فيما اشتمل عليه هذا الكتاب وكان باب السحر مسدوداً والنظر فيه محظوراً فاختصروا منه الكلام في النبات من جهة غرسه وعلاجه وما يعرض له في ذلك وحذفوا الكلام في الفن الآخر منه جملة. واختصر بن العوام كتاب الفلاحة النبطية على هذا المنهاج وبقى الفن الآخر منه مغفلاً نقل منه مسلمة في كتبه السحرية أمهات من مسائله ». وقال في موضع آخر (٧). « وكانت هذه العلوم (٨) في أهل بابل من السريانيين والكلدانيين وفي أهل مصر من القبط وغيرهم وكان لهم فيها التأليف والآثار

(١) نقل شيئا من هذا الكتاب محمد راغب باشا في كتاب سفينة الراغب المطبوعة ببولاق سنة ١٢٨١هـ. (ص ٦٧٠ الى ٦٧٥)

(٢) وفي كتاب سفينة الراغب ص ٦٧١ (سبعين) غلط. والصواب تسعين.

(٣) ص ١٣٥ الى ٤٤٦ من كتابه السابق ص ١٩٨.

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٤٣١ من طبعة بيروت سنة ١٨٧٩ و ص ٥٥١ من طبعة مصر سنة ١٣٢٧ و ص ١٦٥ من الترجمة الفرنسية لدى سلان

(٥) أي من علم الفلاحة المرتبطة بعلوم السحر (٦) أي الملة الاسلاميه

(٧) مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٤ بيروت و ص ٥٥٤ مصر و ص ٣١٧ من الترجمة الفرنسية

(٨) أي علوم السحر والبطسمات

ولم يترجم من كتبهم فيها الا القليل مثل الفلاحة النبطية من اوضاع أهل بابل، فأخذ الناس منها هذا العلم وتفننوا فيه ووضعت بعد ذلك الاوضاع .
« أما الذين جاؤوا بعد خولسن من الباحثين عن حقيقة ذلك الكتاب لاسيما كشمس المذور آنفاً ونولده (١) فبرهنوا البراهين الناطقة على أنه من تأليفات الشعوبية المفرطين في تفضيل الامم الاجنبية على العرب الحضر المتخدين كل وسيلة جائزة كانت أم مكروهة أو مذمومة بلاغا الى مبتغاهم . ففرض كتاب الفلاحة النبطية إثبات أن قدماء أهل بابل قد توصلوا في مدارج الحضارة والتمدن والتقدم العلمى الى غاية لم تقترب منها العرب في الجاهلية ولا فيما بعد الاسلام . وحيث أن معرفة أحوال بابل واثور القديمة قد اندرست كلياً منذ قرون عند الشرقيين ، اخترع صاحب الفلاحة النبطية الانماء والنوادر والاخبار وزور ولفق وموه وفي كل واد هام ووشى كلامه ونسج كتابه بالخرافات الشنيعة والا كاذيب الفظيعة »

« ومن أعجب العجائب أن كتاب الفلاحة النبطية على المحتمل ليس تأليف ابن وحشية كما قيل فى عنوان الكتاب وصدده ، بل انما هو من مختلقات أبى طالب الزيات (٢) الذى نسبه الى ابن وحشية أى الى رجل قد مات وقت نشر التصنيف تخلصاً من ذم اخوانه المسلمين وتبرئة لنفسه من تهمة النفاق والافتراء . وأذتم تدرون ما أكثر مثل ذلك الفعل عند أصحاب الاحكاميات والسحريات والكيمياء ، وكمن تأليف عزى مثلاً الى هرمس وجاماسب وغيرها من الحكماء الوهميين وكمن نسب الى أبى معشر ومسلمة الجريطى من كتاب ألف بعد موتها بقرون — وانى مراتب حتى فى وجود ابن وحشية الذى عزا اليه صاحب كتاب الفهرست ص ٣١١ الى ٣١٢ عدة كتب

Th. N. oldeke, Noch Einigs uber die "Nabataisch Landivirths-(١) chafft," "Zeitschrift der deutschen morgenlandischen Gessellschaft, xxxix, 1875, 445—455"

(٢) راجع نولده ص ٤٥٣ الى ٤٥٥

في علوم السحر، وص ٣٥٨ كتابا في الكيمياء من دون أن يفيدنا شيئا ما من أحوال حياته . وأسمائه أبو بكر أحمد بن علي (١) بن المختار بن عبد الكريم ابن جريثا بن بدنيا بن برطانيا بن غلاطيا (كذا) الكسداني . فترون أن أسماء أجداده أسماء وهمية لأصل لها في اللغات الآرامية (ومنها النبطية) أو في لغات أخرى ، بل أن برطانيا وغلاطيا أسماء ولايتين مشهورتين من ولايات المملكة الرومانية (٢) ذكرا أيضاً في كتابين لبطليموس منقولين الى العربية (٣) . فيتضح أنها جعلت أسماء أشخاص تزويراً . وزيادة على ماقلته نستفيد من كتاب الفهرست ص ٣١٢ أيضاً أن جميع تأليفات ابن وحشية في السحر إنما عرفت برواية أبي طالب الزيات . فذلك يزيدني ريباً في حقيقة وجود ابن وحشية . « (٤)

(١) وقيل بن علي بن قيس بن المختار .

(١) أعني Galatia , Britannia — ولعل بدنيا تعريف بيثونيا Bithynia

أو بنونيا Pannonia

(٣) وهما الجغرافيا وكتاب الاربع مقالات .

(٤) المرجح استنتاجا أن شك الاستاذ نلينو في وجود ابن وحشية لا محل له . لان أبي طالب الزيات إنما ينسب جميع الكتب المترجمة في السحر لاستاذ ابن وحشية أي أنه ينسب الى شخص قريب منه وعلى الاخص قرابة التلميذ من الاستاذ . ولا سيما في الزمان . وابن وحشيه ولو انه اسم غريب إلا أنه يظن أنه اسم عربي وعلى وزن عربي ولا يعقل أن أبي طالب الزيات يخلق اسما غير معروف أو يخلق اسما لا مسمى له ويؤمل أن ينال المؤلفات التي ينسبها اليه ثقة المشتغلين بتلك الفنون بل يرجح أن ابن وحشية كان موجودا وأن أبي طالب الزيات لم ينشر هذه الكتب منسوبة اليه الا بعد موته . ولو نسب الزيات الكتب الى شخص غير معروف لظعن فيها ولقاهر لهذا الطعن أثر من بعده . غير أن الامر الذي لا تشوبه شائبة عندي هي أن هذه الكتب بعد تحقيق الاستاذ نلينو من وضع أبي طالب الزيات . على أن اختلاق أسماء غير معروفة في نسب ابن وحشية يجعل مجالاً للشك في وجوده . غير أن ورود هذه الاسماء في آخر السلسلة يحمل على الظن بأن ابن وحشية لم يكن عربياً أصلاً ، بل كان من السكديانيين أو السريانيين وأن له جذراً على الأقل اعتنقا الاسلام من قبله . والمعروف أن هؤلاء لا يحفظون أنسابهم كما يحفظها العرب . لهذا يفتح مجال واسع لابن طالب الزيات لسكى يتخذ من أسماء الولات الرومانية أجدادا لابن وحشية مبالغة في تكريمه في أعين العرب . (مظهر)

ثم نرجع الى علم الكيمياء . فنجد انفسنا مسوقين الى ان نقرن اسم «جابر بن حيان» بحوران . وهو رجل ذو شخصية محققة الاثر في تاريخ علم الكيمياء . ولم يتحقق الباحثون من تاريخ مولده . ولكن التاريخ يدل على أنه كان تلميذاً للامير خالد الاموي ، وهو أول أمير عربي عني بالعلم ليكون عالماً ، وكان ثابت القدم في علم الكيمياء ، وتنسب مقالات كثيرة في ذلك العلم لجابر بن حيان . وتدل التقاليد على ان اكثرها صحيح النسب اليه .

يقول مسيو « برتيلو » - M. Berthelot في الجزء الثالث من كتابه «الكيمياء في القرون الوسطى» La Chemie en Moyen age - (باريس ١٧٩٣) في تحليل تاريخي قيم أن تاريخ كيمياء العرب ينقسم الى قسمين . الاول ينحصر في نقل المباحث الكيماوية التي قام بها فحول من علماء الاسكندرية . والثاني ينحصر في ما ابتكره العرب في ذلك العلم في ذلك العلم بحد أن اتخذوا عمدتهم على مباحث الاسكندرية . غير أنه ينسب كل ما في هذا العلم من الابتكارات في العصر العربي لجابر حيان حتى قال فيه «جابر بن حيان في علم الكيمياء ، مالا رسطوطاليس من قبله في علم المنطق»

ونشر مسيو برتيلو في كتابه ذلك ستة مقالات صححت لديه نسبتها الى جابر ويعتبرها مسيو برتيلو كمثل لما وصل اليه العقل العربي في ذلك العلم من الابتكار ويقول بان كل الباحثين في هذا العلم من بعده كانوا عالة عليه نقلاً وتعليقاً . لقد ظل العرب طوال قرون يقصرون مباحثهم في الكيمياء على البحث وراء تحويل المعادن الى ذهب . ولكن انقلبت الفكرة فيما بعد ذلك فاخذت الكيمياء بضلع أوسع من العلاقة بعلم الطب ، ولو أنها لم تتحرر تحريراً مطلقاً من الاساطير القديمة . وكان لذلك العلم ثلاثة اغراض عند القدماء : الاول ايجاد محلل عام لكل المواد العنصرية : ثانياً اكتشاف ما يدعونه بحجر الفلاسفة الذي يحول المعادن

الى ذهب : ثالثا العثور على إكسير الحياة ، وهو دواء يشفي جميع العلل والامراض .

إن موضوع هذا العلم كما كان يدركه القدماء لا يمت بأصرة بعيدة أو قريبة ، لعلم الكيمياء كما عرف في العصور الاخيرة غير ان تحويل العناصر الى بعضها بالتجارب الكيماوية لم يصبح في القرن العشرين ذلك الحلم الخيالي الذي تصور أهل القرن التاسع عشر أن القدماء تعلقوا باهداب فضلة . على ان كل ما يهمننا في هذا الموضوع هو ما اقر عليه اؤرخون في تاريخ العلم عند العرب في أنهم كانوا ذوي كفاءات اختبارية عظيمة ، وأنهم أجروا اختبارات جليلة القدر كبيرة الفائدة ، ولو أنهم لم يدركوا كل الادراك ما كان لاختباراتهم تلك من الشأن والخطر الكبير .

إن كل المتون التي نشرها مسيو برتيلو بلا استثناء تبدأ بالتحذير من إذاعة اسرار تلك الصناعة ، وغالب ماتتضمن فقرات يدرك منها أن كاتب المتن قد تعمده أن يغفل ذكر بعض التجارب والاختبارات لئلا يتناولها العامة الذين لم يتثقفوا فيفسدون على الناس امرهم وينكثون قتل الآداب والاخلاق ، بما يصبح بين أيديهم من الذهب الذي يحولونه عن المعادن الاخرى .

والكيماويون من العرب يدعون أنهم وصلوا الى تحويل المعادن إلى ذهب ، وأنهم وقفوا على سر ذلك . والتاريخ مملوء باشارات الى تلك الدعوى . غير أن بعض الناقدين من معاصري الذين ادعوا هذه الدعوى يقولون بان دعواتهم لا دليل عليها ولا صحة لها . وكثيراً ما أشار المؤرخون الى ان المعلم الثاني ، أبي نصر الفارابي كان يعتقد بصحة ذلك الامر ، وانه كان ثابت اليقين في امكان تحويل المعادن الى ذهب . غير انه مات فقيراً معدماً ، بينما تجد أن الرئيس بن سينا ، وهو من لم يعتقدوا ذلك الاعتقاد ، مات في كفاف من العيش ، وكان في استطاعه ان يجمع ثروة كبيرة ، لو انه أراد ذلك .

ولقد اختلف المشتغلون بالكيمياء من العرب في كيفية تحول المعادن أى في صحة الكيمياء كما كانت تعلم في الصور الاولى . فقال بعضهم بانها تتحرك فيصير النحاس فضة وتصير الفضة ذهباً . وقال غير هؤلاء إن المعادن لا تتغير الا في صورتها لاغير ، فيصنع النحاس فيصير أبيض اللون كالفضة ، وتصنع الفضة فتصير كالذهب ، ولكن كل معدن يظل حافظاً لصفاته الاصلية فتظل الفضة فضة والنحاس نحاساً والذهب ذهباً . (راجع المقتطف م ٤١ ص ١٠٥ وما بعدها)

قال حجبى خليفة في كشف الظنون « ان الناس في علم الكيمياء على طريقتين فقال كثير يبطلانه منهم الشيخ الرئيس ابن سينا ، أبطله بمقدمات في كتاب الشفاء ، والشيخ تقي الدين احمد بن تيمية ، صنف رسالة في أنكاره . وصنف يعقوب الكندي أيضاً رسالة في ابطاله ، وكذلك غيرهم . لكنهم لم يوردوا شيئاً يفيد الظن لامتناعه فضلاً عن اليقين وذهب آخرون إلى إمكانه منهم الامام فخر الدين الرازى ، فانه في المباحث الشرقية عقد فصلاً في إمكانه . والشيخ نجم الدين على الشيخ بن تيمية وزيف مقاله في رسالته ومؤيد الدين الطغرأى صنف فيه كتباً منها « حقائق الشهادات » وبين اثباته والرد على ابن سينا »

ولا يقصد هنا بالاثبات والانكار الامسألة تحويل المعادن بعضها الى بعض لان الظاهر ان هذه الفكرة هي التي دار حولها محور علم الكيمياء في كل عصور المدنية العربية

قال الرئيس ابن سينا في انكار تحول المعادن —

« نسلم بإمكان صبغ النحاس بصنع الفضة والفضة بصنع الذهب ، الا أن هذه الامور المحسوسة يشبه ان لا تكون هي الفصول (أى الخواص) التي تصير بها هذه الاجساد انواعاً ، بل هي اعراض ولوازم ، والفصول بمجولة . واذا كان الشيء مجهولاً فكيف يمكن أن يقصد قصد إيجاد أو إفناء ؟ »

وقال الامام الرازي مثبتاً :

« الامكان العقلي ثابت ، لان الاجسام مشتركة في الجسمية ، فوجب أن يصح على كل واحد منها ما يصح على الكل . أما الوقوع فلا أن انفصال الذهب عن غيره هو بالرزانة ، وكل واحد منهما يمكن التشابه فيه ولا منافاة بينهما »
ونقل الفارابي تعليل أرسطو في اثبات التحول .

« أن الفلزات واحدة بالنوع ، والاختلاف الذي بينها ليس في ماهيتها ، وإنما هو في اعراضها . فبعضه في اعراضها الذاتية ، وبعضه في اعراضها العرضية وكل شيئين من نوع واحد اختلفا بعرض ، فانه يمكن انتقال كل واحد منهما الى الآخر . فان كان العرض ذاتياً عسر الانتقال ، وان كان مفارقاً سهل الانتقال ، والعسر في هذه الصناعة انما هو لاختلاف اكثر هذه الجواهر في اعراضها الذاتية ، ويشبه ان يكون الاختلاف الذي بين الذهب والفضة يسيراً جداً » .

وقال الامام شمس الدين محمد بن ابراهيم الانصارى .

« اذا اراد المدبر أن يصنع ذهباً نظير ما صنعته الطبيعة من الزئبق والكبريت الطاهرين ، فيحتاج الى اربعة اشياء كمية كل واحد من ذينك الجزئين وكيفية ومقدار الحرارة الفاعلة للطبخ وزمانه . وكل واحد منها عسر التحصيل . وأما ان أراد ذلك بأن يدبر دواء وهو المعبر عنه بالاكسير مثلاً ، ويلقيه على الفضة ليمزج بها ويستقرخالدا فيها ويكسوها لون الذهب ووزانته — المقصود بها الثقل النوعي في الاستعمال الحديث — فاستخراج ذلك بالتجربة يحتاج الى استقراء حال جميع المعدنيات وخواصها . وان أستخرج بالقياس فمقدماته مجهولة . ولا خفاء في عسر ذلك ومشقته »

ومما يلاحظ هنا أن أقوال المثبتين والمنكرين كلها نظرية مبنية على الاقيسة المنطقية ، ولا شأن لها بالعمليات

ومما لاشك فيه أن العرب أخذوا مبادئ الكيمياء عن اليونان . فان منهم

فلاسفة بحثوا في الاصول العنصرية منهم هيرقليطس الافوسى الذى قال بان النار أصل العناصر، وإمبيدقليس الذى قضى بان العناصر أربعة الماء والهواء والنار والتراب وقد تدعى بالاستةصات الاربعة، وديموقريطس الذى قال بتكون العالم من حركات الجواهر الفردة المكونة للبيولى، وانا كساغوراس الذى اتبع طريقة قياس التمثيل في حل معضلات الطبيعة الكونية، وارسطوطاليس الذى قضى بان الاثير يجب أن يضاف الى العناصر الاربعة وانه عنصر العناصر

ولما انتقلت علوم اليونان الى مصر من طريق مدرسة الاسكندرية توسع الكهنة الذين كانوا يدرسون العلوم في الاشتغال بعلم الكيمياء وزعموا أنهم حولوا المعادن الى ذهب في أول عصور المسيحية فاضلوا كثيراً من محبي الاستطلاع والطامعين في الغنى العاجل حتى اضطر الامبراطوران ساويرس وديوقلتيانوس أن يأمرأ باعدام كل كتب الكيمياء. ولكن نجت منها طائفة وصلت الى أيدي العرب فكانت عمدتهم في هذا الموضوع ومنها اقتبسوا الالفاظ اليونانية المستعملة عندهم في الكيمياء.

* * *

في خلال القرون الوسطى ترجمت عدة مقالات عن « جابر بن حيان » الى اللاتينية. ويدعونه « جيبير » Geber، وكان له أثر كبير في تكوين مدرسة كياوية ذات أثر في بلاد الغرب. وبعد قليل كثر العارفون بتلك الصناعة فكتبوا مقالات كثيرة في اللاتينية نسب أغلبها الى جابر. غير أنها ظاهرة الانتحال

على أن الروايات عن جابر كثيرة، والتخصص من حوله عديدة وجوهه. غير أن مسمو برتيلو يعتقد بان كل الظواهر التاريخية تدل على أن جابراً كان ذا أصرة قريبة ونسب أدنى الى حران في أوائل القرن الثاني من التاريخ الهجرى.